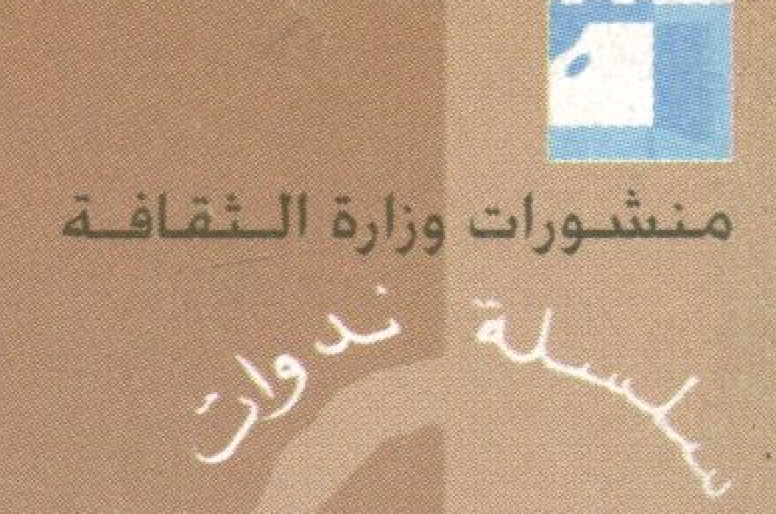


منشورات وزارة الثقافة

سلسلة ندوات

عبد الحميد عقار:
التجربة الثقافية والمسار النقدي

أعمال ندوة
شفشاون، دجنبر 2003

أحمد لمسيح
عبد الرحيم مودن
عبد الفتاح الحجمري
شرف الدين ماجدولين
محمد أمنصور
حسن بحراوي
حسن نجمي
عبد الكريم الطبال

892
A6

منشورات
وزارة الثقافة

عبد الحميد عقار :

التجربة الثقافية والمسار النقدي

تحرير وتنسيق :

شرف الدين ماجدولين

عبد الحميد عقار : التجربة الثقافية والمسار النقدي
الإيداع القانوني : 20072034
ردمـــك : 9954-0-4114-1
منشورات وزارة الثقافة 2007
سحـــب : مطبعة دار المناهل

حسن نجمي ـ أحمد لمسيح ـ عبد الكريم الطبال
حسن بحراوي ـ عبد الرحيم مؤذن ـ شرف الدين ماجدولين
محمد أمنصور ـ عبد الفتاح لحجمري ـ أحمد بنميمون

عبد الحميد عقار :
التجربة الثقافية والمسار النقدي

أعمال ندوة تكريمية
جمعية أصدقاء المعتمد ووزارة الثقافة
5ـ6 دجنبر 2003، بمدينة شفشاون

شهادات

عبد الحميد عقار:
الأستاذ المتعدد الأبعاد

حسن نجمي

في بداية هذا اللقاء التكريمي لأحد أركان الحركة الثقافية والنقدية في المغرب المعاصر، أخي وأستاذي عبد الحميد عقار، لابد أن أنوه بهذه المبادرة، التي برمجت وأجلت لأكثر من مرة، وكتب لها أن تنظم في هذه الأيام المطرة الجميلة في مدينة شفشاون؛ المدينة التي لا أبالغ إذا قلت بأنها شكلت دائما فضاء ثقافيا، وفكريا، وأدبيا بامتياز. وظلت دائما قبلة لشعراء المغرب ومثقفيه، وما كان ذلك ليتحقق لولا أن هذه المدينة راكمت جملة من تقاليد الإنصات والحوار، والحضور، والتفاعل مع مثل هذه التظاهرات الأدبية والثقافية والفكرية والفنية. وبالخصوص لو لم تكن هذه المدينة تتوفر على تاريخ ثقافي متميز، وعلى نخبة ثقافية وإبداعية لها حضورها، لا على المستوى المحلي فقط، ولكن على المستوى الوطني والعربي. خاصة -وأنتم تعرفون ذلك جيدا- أنها تتوفر على جملة من أبرز الشعراء الحركة الشعرية المعاصرة، وعلى ثلة من الفنانين التشكيليين، ومن مبدعي

التعبيرات الموسيقية، إضافة إلى ما تتوفر عليه من ثراء في الصناعات المحلية، وهو مصدر اعتزاز بالنسبة للنخب الثقافية والفكرية المغربية.

لا أنسى أيضا أن مدينة شفشاون تعتبر مصدرا لأسماء نضالية، من مختلف المرجعيات الفكرية والايديولوجية، لا أتحدث عن عمقها التاريخي فأنتم تعرفونه، يكفي أن أستحضر رصيدها في الحركة الريفية وفي الحركة الوطنية في بابها المعاصر. أقول ذلك لا من قبيل المجاملة ولكن لأصل إلى القول بأننا ونحن نلتف -خلال هذين اليومين- حول أستاذنا عبد الحميد عقار، فذلك لأنه يعتبر امتدادا طبيعيا، للوجوه التاريخية والفكرية والثقافية والنضالية، التي أنجبتها هذه المدينة الريفية الأندلسية، العظيمة بأبنائها وبحياتها اليومية الجميلة، برغم المصاعب التي نعرفها جميعا في بلادنا.

وأعتز شخصيا بحضور هذا اللقاء لأن عبد الحميد عقار ليس صديقا فحسب، ولكنه أستاذ لي، ولدي الكثير من الأساتذة ؛ أساتذة في الحياة وفي حومات الفعل الثقافي، الفكري، الإبداعي، والنضالي، كما أن لدي أساتذة جلست أمامهم في صفوف الدراسة في الجامعة وفي مختلف أسلاك التعليم، وعبد الحميد عقار أستاذ ببعدين :جلست إليه طالبا في كلية الآداب بالرباط، بداية الثمانينات، أستاذا لمادة الرواية، وتعلمت منه أستاذا في الفعل وفي الحياة اليومية. عبد الحميد عقار بالنسبة لي شخصيا، رجل مبادئ، وتعرفون جيدا أنه اختار منذ البداية الانخراط في حركة الفعل السياسي التقدمي الديمقراطي

الانساني، وشكل لسنوات مرجعا للشبيبة المغربية : مؤطرا ومرشدا. وعندما أشرف مباشرة على إدارة وتحرير مجلة "الجسور" الطيبة الذكر، التي طالها قرار المنع الاداري في سنة 1984، مع مجلات ثقافية أخرى : كالثقافة الجديدة والزمان المغربي والبديل، تأكد لدينا بأن الفعل الذي كان يخوضه عبد الحميد عقار لم يكن فعلا اعتباطيا ولا مجانيا، ولا كان لتزجية الوقت، ولكنه كان فعلا فكريا عميقا، يحفر في الواقع وفي الذهنيات والمسلكيات وفي وجدانات الناس، وخاصة لدى الأجيال الجديدة.

وعبد الحميد، من جهة أخرى، رجل مواقف بالفعل الفكري والفعل الثقافي والفعل الأدبي، لا ينفصل بالنسبة إليه الإبداع الأدبي عن انخراطه في دينامية المجتمع، كمثقف له مسؤولية أدبية وأخلاقية. لا مكان للحياد في تحليله، وفي خطابه، وفي التزاماته، وفي تواصله، وتفاعله مع مختلف المخاطبين، من مختلف المرجعيات، والأجيال، والتيارات الفكرية والسياسية، وهو واع بذلك، ويشكل لديه اختيارا شخصيا واضحا فيما يكتبه ويقوله ويبادر إليه. ولذلك وجدناه في مقدمة المناضلين في الحركة السياسية الجديدة، وفي مقدمة المشهد النقابي في إطار الاتحاد المغربي للشغل -كرجل تعليم تدرج في أسلاك التعليم الثانوي والجامعي وتحمل مسؤوليات أساسية في مراحل عصيبة- ووجدناه أيضا في واجهات العمل الحقوقي عضوا بارزا ومسؤولا في الجمعية المغربية لحقوق الإنسان، وأحد المشرفين المباشرين على منشوراتها وإعلامها، وخاصة في صحيفة

"التضامن"، فضلا عن ومجموعة من المنشورات والمطبوعات التي كان يشرف عليها : تحريرا، وتصحيحا، وتوضيبا.

ثم دوره وموقفه في الحركة الثقافية الجديدة، وتحديدا في فضاء اتحاد كتاب المغرب، في فرع الرباط أولا، ثم في المكتب المركزي، حيث ظل عبد الحميد عقار يتحمل المسؤولية على مستوى المكتب المركزي لمدة ثلاث عشرة سنة، مسؤولا مباشرا ؛ بما تعنيه المسؤولية من حضور يومي إلى مقر الاتحاد، وتأطير الأنشطة، والإشراف على المجلة، وتحرير المواد، وإنجاز المراسلات، والإشراف على التظاهرات والمهرجانات والملتقيات، والحضور في مختلف التعاقدات والالتزامات مع محاورين ومخاطبين وشركاء من شتى الأصناف، سواء على مستوى الدولة أو المجتمع أو العلاقات الخارجية، إلى غير ذلك...

كل ذلك يتطلب وقتا وجهدا وإمكانيات شخصية -ذاتية في الغالب- تكون على حساب الالتزام بالأعمال الأدبية والفكرية، ومثل هذه المسؤوليات وغيرها أخذت من عبد الحميد عقار وظلت تأخذ منه -مثلما أخذت من محمد برادة ومحمد الأشعري وأحمد اليابوري وغيرهم- الكثير من الوقت والجهد، ولذلك لاحظنا أنهم كانوا ينسون أنفسهم، فنشروا قليلا من الكتب بينما كانوا يشرفون على نشر كتب زملائهم، ويقدمون الفضاء الملائم والمساحات الحرة والضرورية لإنتاج الخطابات والمفاهيم وزرع قيم جديدة في الجسد الثقافي والاجتماعي الوطني. وبالنسبة إلينا كتلامذة وورثة لهذا المسار الفني الثري، سيظل عبد الحميد عقار دوما مصدر اعتزاز وأفقا للتعلم.

الجانب الثاني في عبد الحميد عقار أنه صديق وفيّ، لا يخون الصداقة، ويعطي لها معنى بحضوره المشع، وقدرته على الانخراط في نسيج العلائق الإنسانية، بدفئها وحميميتها الشخصية الرفيعة والنبيلة، وبشفافيتها ونظافتها، ونقاء التفاعل الذي ينبغي أن تخلقه فيما بين الأصدقاء، وأيضا وأساسا بوضوحها ؛ فعبد الحميد عقار لا يتحدث لغتين، ولا يقدم خطابا مزدوجا في علاقته بأصدقائه من أي جيل أو تيار فكري وسياسي كانوا، يحب الجميع، ويفرض احترامه على الجميع ؛ بفيض المحبة، وبشفافية العلاقة، وبالوضوح الصريح الذي لا يصدر عن مكر ولا مخاتلة، بحيث لا تلزمه الصداقة -ببعدها الإنساني- بالتنازل عن موقف أو المساومة على مبدأ أو التخلي عن فكرة يومن بها.

هكذا تابعناه ولاحظناه دائما، أستاذا يفرض سلطة الأستاذية دونما تلقين أو وصاية، لا يفرط في الوقت، لا يحضر متأخرا، لا ينصرف قبل المدة المخصصة للدروس، ويحسن الإنصات لطلابه، ويعرف كيف يستخرج منهم طاقاتهم وإمكانياتهم الكامنة، ويعرف كيف ينصح دونما تعال، ويوجه دونما سلطة طاغية داخل الفصل.

لا أريد أن أطيل، لكن أود أن أقول باسمي شخصيا، وباسم اتحاد كتاب المغرب، وباسم أصدقاء اتحاد كتاب المغرب : إن عبد الحميد عقار بالنسبة إلينا في هذه المؤسسة وفي مجمل المؤسسات الوطنية أصبح ركنا أساسيا في الحركة الثقافية الوطنية المعاصرة في المغرب، يؤمن بهذا الكثير من أصدقائه

وزملائه وأحبته، ولهذا عندما تحدث إلي صديقي وأخي شرف الدين ماجدولين عن هذا التكريم تخوفت، فالتكريم عادة يعطي الانطباع بأن الشخص سيمضي إلى تقاعده، ونحن نعتبر أن عبد الحميد عقار في أقصى درجات النضج والعطاء والحضور المشع... لكن التكريم ليس له معنى واحد، فالتكريم أيضا يجب أن نفهمه من حيث كونه تعبيرا عن امتناننا، واعترافنا بقيمة بعض الأقلام والأسماء، وبعض الوجوه بيننا، وحين نكرمهم فكأننا نحتفي بأنفسنا جميعا، كأننا نحتفي بالخطاب الذي نشيده، وبالأفكار التي نصنعها، وبالأفق الذي اخترناه معا سويا، كأننا نحتفي بالمبادئ الجميلة، المضيئة، المشرقة، التي اخترنا أن ننتصر لها، كأننا نحتفي بالقيم التي علينا أن نزرعها في تربة الجميع، وفي أخلاقيات الناس، وفي سلوكياتهم، وفي ثقافتهم اليومية.

إذن عندما نحتفي بعبد الحميد عقار فإننا نحتفي بأفق رحب، بقيمة أدبية وثقافية وفكرية ونضالية تنتمي إلى أفقنا جميعا، لذلك لابد أن أشكر مرة أخرى الأصدقاء جميعا في مدينة شفشاون الذين اختاروا أن يوجهوا هذه التحية إلى عبد الحميد عقار في تربته الأولى، في مكان طفولته، في موطنه الأول الصغير، بين عشيرته وأهله وأصدقائه وإخوانه في هذه المدينة المناضلة، فشكرا لكم مرة أخرى وشكرا لعبد الحميد عقار الذي دأب دائما أن يجمعنا من حوله في الرباط وخارج الرباط.

المتفرد المتواجد
بين
صرامة الروح واعتناق الحياة

أحمد لمسيح

عادة ما يأتي الناس - في مثل هذا المقام- من أجل امتداح المحتفى به أو رد التحية، ولكني أتيت من خضم كاد أن يفقدني متعة وأداء دين في عنقي لم أجد فكاكا عنهما، وأنا من المؤمنين بأن الحياة ما هي إلا لحظات مختلسة للفرح والذات، وما دونهما أسباب لأسباب.

ولأقلها من البداية : "لا أحس بأدنى حرج، وأنا أمتدح عبد الحميد سرا وعلنا " إنه لا يمكن لصداقة أن تدوم ما يقارب ثلاثة عقود، ولا يقع فيها شرخ، خاصة بين الكتاب، والمنتمين إلى حقول- حتى لا أقول مختبرات- سياسية متباينة. ومع ذلك فصداقتنا لم تتعرض لأي اختبار، أسسناها منذ البداية على المشترك، بوشائج قوية، منطلقا يفضي إلى تقليص هوة البعد التي امتلأت بتنامي القرب، كان احترام الاختلاف مبدأ ودليلا،

دلل كل المعيقات في تمتين عروة كانت وثيقة ودائمة إلى الآن... وأظن أن اعتقادا سائدا يتجلى في وهم الكثير بأن عبد الحميد صديق جاهز وسهل، لأنه صادق وسهل المعاشرة.

وليصفح عني صديقي عبد الحميد إذا استحضرت قليلا من المحطات/العلامات التي سأبوح بها الآن، وقد انتخبتها لدلالتها العميقة في نفسي، فهي بليغة عندي بقدر ما كان بعضها برقاً ونحن نتبادل الحديث عنها معا :

- كان السي عبد الحميد مسؤولا عن المجلس الجهوي النقابي لإحدى المركزيات النقابية بمدينة الرباط، وقد كانت الرومانسية آنئذ نسغ العمل النضالي، ربما في سنة 1976 أو 1977، وكان في رحم تلك النقابة بداية تشكل لبديل عنها، أتذكر كيف بعثت بصفتي عضوا رسالة استقالة بدون استشارة مع أحد، أو تنسيق مع أحد، ولم أنصت إلا لحماس الشباب واندفاعاته التي تتنفسها مسامي وقتذاك. وكانت الرسالة محاكمة محاكمة، وفي نفس الآن، تبشيرا بالرغبة في البحث عن أفق آخر، أتذكر كيف أصر عبد الحميد أن تتلى تلك الرسالة / الاستقالة في اجتماع المجلس النقابي، رغم ما فيها من نقد لمؤسسة نقابية هو مسؤول فيها، أذكر ذلك بتقدير، وأترك لكم التقييم.

- المحطة الأخرى التي بدأت تقرب بيننا -بعد مدة قليلة من السالفة- حين شاركنا معا في تظاهرة ثقافية نظمت في فضاء النطاق الثقافي في مكناس، وقدم فيها عبد الحميد عرضا -إذا لم تخني الذاكرة- كان عن " الشعر الثوري " وكان من بين المشاركين الشاعر محمد بنيس، وقد وردت في مداخلتي عبارة " لوثة

الثقافة"- وأرجوكم استحضار جو السبعينات من القرن الماضي- وكنت أعني بها ما يمكن أن تعنيه بالدارجة لفظة : " لفهامات " ، أو ما يقصد أصحاب الأمر الفني بـ : " التشدق " و"الشقشقة " ، وما كنت أرومه في ذلك الوقت هو " البريق الشكلي " و" جنون الإبهار بالتجريب" و" التنظير والبيانات " مع غياب مطلق " لمضمون ثوري ملتحم بقضايا الجماهير" ، وأذكر كيف انزعج الصديق محمد بنيس، واعتلى المنصة ليحتج بأنه حزين لسماع هذا الكلام من شاعر، وأن فيه خلفيات. وأذكر كيف قرب الصديق عبد الحميد الهوة بيننا في جلسة حميمية مغلقة، بمرافعته في أن الأمر لا سياسة فيه، وإنما اختلاف في الرؤى، ولا أحد مستهدف.

- كان عبد الحميد ساهرا على متابعة تفاصيل حياة وعائلات وأسر بعض معتقلي الرأي بصفته المناضل الحقوقي المؤسس والنشيط في الجمعية المغربية لحقوق الإنسان، في سنوات الجمر، وكان من نشطائها الأوائل، وهو يعرف تمام المعرفة ما أعنيه عندما أهديته قصيدة : " حاضي الروح "، تحت عبارة : " إلى العزيز عبد الحميد عقار، من وهم السر إلى علن الوهم ".

- أغلب ضيوف اتحاد الكتاب- في فترة الفاقة والضيق- كان يستضيفهم على نفقته ويرعاهم بعنايته وكرمه العفوي.

- في الوقت الذي حورب فيه ترشيحه بضراوة، من بعض الجهات، للمكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب، أذكر كيف كان داعما فاعلا في الظل، ومنجزا لما عجز عنه أولئك الذين حاربوه،

وقد حملتهم كقشة المياه إلى السطح، وقد كان ذلك تأبينا لهم كتابة وفعلا.

- أتذكر أحد الذين يغازلون صوتهم عند التكلم، كيف هيأ له عبد الحميد اجتماعا في بيته من أجل أن يساند ترشيحه لرئاسة إحدى الجمعيات الثقافية، وقد كان ذلك الرئيس العابر منتميا لحلقة من كانوا يحاربون حتى عضوية السي عبد الحميد في تلك الجمعية.

-وأذكر أننا احتفلنا برأس السنة ذات مرة في " خلوته" رأسا لرأس، لا ثالث لنا إلا طفلي غسان وعمره لا يتجاوز ثماني سنوات، وكيف أهداه في عيد ميلاده كتابا يضم نصوصا مبسطة لـ :بوشكين. كان ملجأ، ومن يدري؟ فقد ألغى عدة دعوات لأني كنت أهرب إلى عزلته التي تبيح « للعالم المنتقى » أن يستضيفنا ونحن نصد الضوضاء والنشاز.

- أذكر أنني فقدت والدتي ووالدي في أقل من ثلاث سنوات، وأتذكر كيف التقط حميد اهتزازي، وحاصر نفوري من "التماس مع الحياة"، وانشدادي إلى موضوع الموت، حتى أصبحت أرى أن ما يفعله الناس ليس سوى لهو، ومحاولة للنسيان، والابتعاد عن التفكير بأنه محكوم علينا بالوفاة، وما نفعله في العمر ليس سوى قضاء الحكم بحساب العد العكسي. أذكر كيف انتظمت لقاءاتنا مرتين محددتين في الأسبوع، أذكر كيف كان ينتزعني من عزلة الحزن إلى عزلة الفرح، دون أن أحس لحظة واحدة بالمواساة أو بتدبير مؤامرة ضد انعزالي.

- أذكر كيف كنا نرتجل - بتناغم خفي وغير مدبر- مؤامراتنا

للمرح وإسقاط الأقنعة. هل تذكر يا عبد الحميد هذا السؤال ونحن أمام المصعد في لينينغراد، " إدريس تدخن هي أيضا؟" والشيء بالشيء يذكر، فقد كان معنا عبد الحميد في رحلتنا إلى الاتحاد السوفياتي -رحمه الله-، وكأن كل ذرة في الهواء تحسب أنفاسه وتراقبه. كان ذلك المناضل الكلاسيكي الصامد مع نفسه، الذي لا يفوت للخصوم والأعداء ثغرة لنقده ومحاسبته، رغم ثقته في شخصيا، كان متطرفا في حكمته وحذره أمام نزق الشاعر الذي لا يلتفت إلى الرقابة في ظله، هل تذكر يا عبد الحميد ابتداعنا لشفرة " الشفوي" ونحن في باريس وبغداد والقوم يقرأون ولا يستهلكون، ثم يؤدى عنهم؟

- آخر محطة/علامة أريد أن أستحضرها : في أحد مؤتمرات اتحاد كتاب المغرب أعلن الرئيس الأسبق للاتحاد الصديق الوفي محمد الأشعري : " إنني كسبت في هذه التجربة في الاتحاد صديقا أصيلا وعميقا هو عبد الحميد عقار"، ووقف المؤتمرون باختلاف انتماءاتهم وصراعاتهم وصفقوا طويلا طويلا للسي عبد الحميد.

هذه كانت بعض المحطات/العلامات وأريد أن تسمحوا لي ببعض الاستنتاجات التي أطمح إلى الإفصاح عنها، وأنا أراهن ألا كون مبالغا فيها، أستعرضها أمامكم كما أحملها، وأعترف أنني تعلمتها من معاشرتي الطويلة للصديق عبد الحميد عقار في محطات مختلفة، أثمنها وأقدرها. لقد تعلمت منه :

- لا مبرر لوجودك إذا لم تضف جديدا أو تخترق ثابتا.

- التمهل في الاشتعال احتراقا ليستضيء الآخرون.

- التأني مختبر القرار.

- التماوت أمام طاحونة الغوغاء من غير تنازل أو مغازلة.

- بقعة الضوء موجودة لكنها لا تبحث عنك، بل أنت من يجب أن يبحث عنها.

- الآخر ليس واحدا، والذات ليست واحدة.

- الأثر لا يتم بالفرقعة الإعلامية ولا يصنع بالضجيج، لكن بالتحول في الشرايين وما تضخ فيها من أنفاس الحياة حتى تصبح لازمة مثل آلة موسيقية ضمن جوقة معتكفة على الخلق والإضاءة.

- إنصاف الظل ينعش الجسد.

- صوته دليله، ودليل عنه.

- عبد الحميد لا يحييك إلا محرضا على الابتسام، ومادا إياك بما يدفعك إلى التواطؤ من أجل المرح والانخراط في الحياة.

- لا ينتصب عبد الحميد على جثث الآخرين أو محو الموازين له في الطريق، ولا يلتفت إلى غواية أثناء العبور.

- لا يبيع ولا يستثمر معرفته وتجربته وكفاءته، بل يهبها كواجب انخراط في الجسد الفاعل المخصب للثقافة المغربية. والأداء المتجذر والهادئ الذي لا يتعجل مواسم الحصاد.

- مقبل على الحياة بتفاؤل وليس كمن يغرق كأسه كي يهجو العطش.

- الندرة والحضور مفارقة لصيقة بعبد الحميد، ولا أدري هل

تعلمون أنه مورست عليه ضغوط وجدانية من طرف الخلص من أصدقائه ليناقش رسالته ثم بعد ذلك أن ينشرها باسمه العلني والصريح.

وأخيرا صديقي الأعز عبد الحميد عقار :

أنتمي إليك... لا أنتمي إليك

إننا نسعى معا لأن ننتمي للمفتقد، وإلا ما معنى أن نحفر في " السند الواقعي" لنندهش

مد لي كفا كي أساعدك

كن لي نبضا إذا أخفيتُ جسدي عني كي لا أراهم يجلدون الحلم حتى يتكوبس.

تحمل مني هدوئي المربك والملتبس، وغضبي الزائف والمضلل.

كن لي سندا

تمهل يا مشيع الرحابة إلى مقاصد النور

دثر نبض العنفوان بريش من ريح، حتى يتجاوز بخفقان متواتر جبالا ترصد إصرار الأمل والتفاؤل على البقاء.

وختاما أقول لصديقي عبد الحميد :

ليت لتفانيك وصرامتك عدوى نعوض بها عن الشكوى والنميمة اللتين أصبحتا ذلك الواجب اليومي عند البعض.

عبد الحميد عقار:
قدرة بارعة على الحوار الخلّاق

عبد الكريم الطبال

في سنة 1959 وفد على هذه المدينة، ولد من البادية، من قرية **تنقوب**، اسمه عبد الحميد، وسيفد معه تلاميذ آخرون من هذا المدشر وذاك، ومن هذه القرية وتلك، فيلتحق رأسا بمعهد **المشيشي** ليسجل تلميذا في الإعدادية. في هذا التاريخ بالضبط كنت أشتغل أستاذا في ثانوية التعليم الأصيل، حديث العهد بها، ومن الصدف الغريبة أن التلميذ سيكون سكنه في حومة السوق التي هي حومتي، ولربما كنا نلتقي صباحا ومساء، أنا في الطريق إلى المؤسسة وهو في الطريق إلى المؤسسة، أنا أستاذ وهو تلميذ، ولربما عرفني في تلك السنين الثلاث التي قضاها في معهد المشيشي، لكنني متيقن أنني لم أتعرف عليه، ربما كنت أراه مرارا ولكنني كنت لا أعرف أنه عبد الحميد. وأذكر في السنوات الثلاث التي قضاها في المؤسسة أن المدينة كانت تعج بالنشاط، كانت هناك جمعيات متعددة : جمعية "**مغرب الغد**" التابعة لحزب

الشورى والاستقلال، وجمعية "**الطالب** " التابعة لحزب الاستقلال، ثم جمعية "**النجم الراشدي** "وهي فرقة مسرحية. وأذكر أنني في تلك السنين كنت على أتم النشاط والحيوية، دائم الحضور في دار الشباب، وكان جمهور هذا النشاط الثقافي البارز، الذي كان ينظم في دار الشباب، يتألف في معظمه من طلبة وتلاميذ المعهد الأصيل، ومعهد الشيشي، وأحسب أن عبد الحميد كان من بين التلاميذ الذين كانوا يتوافدون على دار الشباب في ذلك التاريخ البعيد.

وفي هذا التاريخ بالذات سيسهم **معهد الشيشي** في تفعيل النشاط الثقافي حتى داخل المؤسسة ؛ فكان التلاميذ يصدرون مجلات حائطية تعلق في باب المعهد، من مثل مجلة "**العنادل**". وأذكر أن بعض التلاميذ في ذلك التاريخ البعيد كانوا يتصلون بي ليقدموا إلي المواد التي ستصدر في المجلة، ويستشيرون معي فيها. وأحسب أن عبد الحميد كان واحد من هؤلاء بلا شك.

وتنتهي السنوات الثلاث، وقد اكتسب صاحبنا أصدقاء عديدين منهم **الدكتور مصطفى الزباخ** ومنهم الأستاذ **مصطفى بومنيدل** والأستاذ **عبد السلام بوعلو** وآخرين. وينتقل إلى العرائش لمتابعة الدراسة الثانوية في سنة 1962، ويقضي هناك أيضا ثلاث سنوات في الثانوية التي كان يديرها الأستاذ **عبد القادر الساحلي**، وهو من مثقفي القصر الكبير، وخريج كلية دار العلوم بالقاهرة.

إلى حد الآن لازلت لا أعرف اسم عبد الحميد عقار، ومنذ زمن

بعيد كنت مهتما ولا أزال بالتلاميذ والطلبة القلقين الحائرين والواعدين، أتتبع أثرهم أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا، ومن هذا المعهد سيمر عبد القادر الشاوي كذلك، وبقيت في الذهن أسماء قليلة هي التي ظللت أتابع أثرها أينما ارتحلت.

في سنة 1966 سينتقل عبد الحميد عقار إلى فاس صحبت **مصطفى الزباخ ومصطفى بومنيدل** حيث سيتابع دراسته الجامعية لمدة ثلاث سنوات إلى سنة 1968، في هذه السنوات الموسومة بسنوات الجمر كان المغرب يعيش في مناخ متوتر إلى حد كبير، كان الواقع يموج بتيارات ثقافية وفكرية داخلية وخارجية. وكان التيار السائد في المغرب وقتذاك هو الذي يقوده عقائديا **الاتحاد الوطني للقوات الشعبية**، هذا الاتحاد الذي كان يرفع شعارات بديلة تخلخل أو تريد أن تخلخل القيم التي كانت سائدة، كان الواقعي مجرد صدى للتيار الثوري الأصيل الذي رسخه الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وهذا التيار نفسه كان في نظري مجرد صدى لتيار سابق هو تيار المقاومة وجيش التحرير، ومن قبل ذلك الثورة الريفية. وكانت هناك تيارات خارجية من مثل التيار **الناصري** الذي كان يفعل فعل السحر في النفوس وفي العقول وخاصة بين طلبتنا في الجامعة وبالأخص في فاس وفي ظهر المهراز. بالإضافة إلى تيارات أخرى ليست عربية **كالوجودية** بمقولة الالتزام التي كان لها انعكاس خطير على الإبداع الأدبي وعلى النقد، بالإضافة إلى مفاهيم **الواقعية الاشتراكية** المنحدرة من تيار **الماركسية** بإغراءاته العديدة، كل ذلك أثر أيما تأثير في الفكر المغربي،

وفي الجامعة المغربية، وفي الطلبة المغاربة. وقد كان عبد الحميد في عمق هذا المناخ.

وسينتقل عقار إلى الرباط بعد سنة 1968 حين تخرج من الجامعة، ليحشر نفسه حشرا داخل الصخب الفكري المتفاعل بين جنباتها، وفي هذه الفترة بالذات عرفت اسم عبد الحميد عقار : الفاعل في النقابة، وفي تعاضدية الكلية، وفي اتحاد كتاب المغرب. ونصل إلى سنة 1981، التاريخ الذي سيكشف عبد الحميد فيه عن وجهه الحقيقي، ويؤسس مجلة **"الجسور"**، حيث سيقول لكل الجسور لا نريد جسورا وإنما طوفانا... ثم تتوقف مجلة الجسور .

وفي أواخر الثمانينيات سيظهر عبد الحميد في مجلة آفاق لسان اتحاد كتاب المغرب، حينما يصعد إلى المكتب المركزي، وفي هذا الوقت تحديدا سيسلط الضوء عليه كثيرا فلقد كان في المكتب المركزي، هو الدعامة الأساسية، أقول هذا بدون مبالغة، وسيستمر إلى سنة 1999، حيث سينتقل من مجلة آفاق إلى مجلة الثقافة المغربية.

وأحسب أن عبد الحميد عبر هذا التاريخ، كان دوما عاشق المجلات بامتياز، بدأ في المعهد المشيشي مع المجلة الحائطية، ثم انتقل إلى الجسور، ثم إلى آفاق، وهو الآن في الثقافة المغربية.

هذا هو عبد الحميد كما هو عندي في الصورة التي اختزنتها الذاكرة. ومع ذلك من هو عبد الحميد في تصوري ؟

عبد الحميد حضور دائم في بؤرة الفعل الثقافي.

عبد الحميد صلابة في الموقف وفي المبدأ، حينما مدت المائدة لم يمد يده إلى الصحن.

عبد الحميد قدرة بارعة على الحوار الخلاَّق، ولذلك كنت أحرص دوما على ألا يفوتني حوار معه في الإذاعة أو التلفاز.

عبد الحميد كاتب بصوته أكثر مما هو كاتب بقلمه، ولهذا أتمنى أن ينتقل من مرحلة الصوت إلى مرحلة الكتابة، لا نكتفي منه بالكتابة المؤتمرية، نريد منه الكتابة المركبة ذات النفس الطويل وما ذلك على همة حبيبنا وعزيزنا بعزيز.

مَنْطِقُ حقٍّ

أحمد بنميمون

نجتمع اليوم لتكريم كاتب أديب، ومثقف، مغربي حفر إسمه عميقا في هذه المجالات كلها ؛ إنه عبد الحميد الكاتب المعاصر الحديث. ولكنه لكي يأخذ لنفسه الموقع المتميز اختار الذهاب إلى الكتابة عن طريق الثقافة والفعل النضالي والعمل الثقافي المعمق، فاغتنى الأدب المغربي بعطاء له من الشمول والسعة ما تستطيع تقديمه الثقافة للأدب حينما لاتكتفي بالحدود الأكاديمية الصارمة التي إن كان من محاسنها وإيجابياتها البحث الدؤوب والمنهجية العلمية إلا أنها حين تظل حبيسة نطاق قراءات، تعجز عن ارتياد آفاق، لايقوى على الوصول إليها إلا الإبداع قراءة وكتابة. وإنه لمن نافل القول أن أؤكد أن الكاتب الجيد هو قارئ جيد ؛ في الوقت الذي لانظلم الأكاديمية إذا أشرنا إلى ضيق ماتقرأ ومحدوديته بما ينعكس، دون شك، في الحصلة الأخيرة على وسمها بطابع التخصص الذي من نتائجه ذلك الضيق والمحدودية الذين أشرنا إليهما.

أما عند عبد الحميد، في ماكتبه، فنجد أن السمة المميزة لإنجازه النقدي الذي بالإضافة إلى مميزاته الأكاديمية، التحلي برؤية إلى النقدوبحس نقدي هما ناتج رؤية إلى التاريخ في صيرورته، وذلك مما تفتقر إليه دراسات أنجزت بين جدران الجامعة، دون أن تكون لها هذه القدرة الإشعاعية، التي تتمرد على الحدود لتنتقل إلى خارج تلك الجدران. وهكذا استطاعت كتابة عبد الحميد أن تجدلها آفاقا واسعة لتتصل بقاعدة عريضة من القراء، إن في المغرب أو خارجه، وأذكر أن المنجز النقدي لعبد الحميد قد أغرى (أحدهم) بالسطو ذات مرة، على صفحات (الحياة الثقافية) التونسية، حيث امتدت إليها يد من قصرت إمكانياته عن الكتابة الإبداعية الفكرية، فسرقت منه بحثا من بحوثه، وقد يذكر عبد الحميد هذه «الواقعة» أو قد يكون نسيها إلا أنني آتي بها هنا لدلالاتها الغنية، إذ يكفي أن يكون هناك من يغريه منجزنا بالسرقة، أو من يقوم بها فعلا، ليكون في ذلك بعض مما يدل على أننا نملك مالايملكه «السارق» الأدبي في أقل تقدير، وأننا أيضا نملك ما نستطيع به أن نفيد من يأخذ منا ما يريد أخذه شريطة مراعاة متطلبات الأمانة العلمية بالإشارة إلى المرجع والمصدر، وذلك مما يدل إذا هو وقع في الحدود المتعارف عليها، أننا أصبحنا مرجعا يعود إليه الباحثون، ومصدرا يتزودون منه، وكفى بهذا شهادة على تفوق، وأننا استرجعنا مكانتنا من ساحة المعرفة على طريقة أسلافنا المفكرين ابن رشد وابن طفيل وأساتذتنا العروي والخطيبي والجابري وعلال الفاسي وغير هؤلاء كثيرون، ممن تميزوا بإضافاتهم الخاصة.

إن قيمة فكر وأدب ونقد عبد الحميد عقار تنبع من كونه الناقد المفكر الكاتب الذي وضع نقدا سياسيا وروائيا وثقافيا. أي أنه أديب اغتنت معرفته بالنقد الثقافي، وناقد ازدان أسلوبه بجمالية الخلق الأدبي، ومثقف دخل إلى عالم الكتابة مزودا برؤية في النقد وحس جمالي في الأدب وعمق في الفكر الإجتماعي و السياسي اجتمع في كتاباته من هذا وذاك مايكون الصورة الجميلة ظاهرا وباطنا لعبد الحميد الذي نعاصره، وإذا كانت المعاصرة حجابا كما يقولون، فإن هذه الصورة تتمرد بالفعل على كل حجاب، و يظهرها العمل والممارسة، فلا يخفى منها شيء، وإن تعمد صاحبها إخفاء بعض ذلك على سبيل التواضع، ولكننا هنا لكي نشهد، وطبيعة الشهادة تدفعنا نحن في اتحاد الكتاب إلى الإقرار بذلك في جميع الحالات و المواقف.

إنني، أيها الصديق العزيز، سعيد حقا بهذا التكريم، ككل أصدقائك أعضاء اتحاد كتاب المغرب، الذين يقدرون فيك جوانب متعددة صنعت شخصية لها أبعاد أدبية وثقافية، وأخرى فكرية ونضالية، وهي أبعاد تتسع وتتوالد باستمرار لتنتج فكرا نقديا، وجمالية أدبية، وثقافة اتسعت فشملت التحليل السياسي والإبداع الأدبي والنقد الثقافي.

وقد اجتمع كل ذلك في شخصية عبد الحميد عقار عبر تكوين دؤوب متصل هادئ، منذ مراحل التكوين الأولى بشفشاون ثم بالقصر الكبير والعرائش وثم لينتقل إلى الجامعة طالبا فأستاذا.

وأنا أحمل لعبد الحميد ذكرى بعيدة، لم تعد إليّ الآن إلا على سبيل التداعي : ففي سنة 1964 أو 1965 حين كنا بالعرائش، كان قد اجتمع لدي على أوراق بعض من ملاحظات عن الثقافة المغربية، مما كنت قرأته في ملاحقنا ومجلاتنا الأدبية المغربية القليلة آنذاك، وملاحظات أخرى مما كان يكتب عن الثقافة العربية على صفحات الآداب والأديب وصحف مصرية كثيرة، فألفت بينها في مايشبه المقالة، أو يزيد قليلا، وسعيت إلى تقديم كل ذلك في محاضرة أمام جمهور مدينة العرائش بقاعة جوار المكتبة البلدية بنفس المدينة، كانت تابعة للشبيبة والرياضة، ذات ليلة رمضانية، عشية دخول المغرب في ليل سياسي طويل عرف آنذاك بذلك الاسم الواضح الملتبس (حالة الاستثناء) وهب آنذاك طلبة ثانوية أخرى ليكونوا شهودا على هذه «الظاهرة» غير المسبوقة، ولم يكن لي من مؤيد مؤازر مشجع في ذلك الزمن في العرائش، على تلك (الفعلة الثقافية) الجريئة بمقاييس ذلك الزمن إلا ثلة من أصدقاء القسم الداخلي كانوا يشدون من أزر ذلك التلميذ «المحاضر» أذكر على رأسهم عبد الحميد عقار وصديقنا المشترك محمد الفاسي (ولد الفقيه الخمس) وآخرين غابت عني أسماؤهم، أمام الأكثرية من التلاميذ الذين استكثروا أن يقدم طفل، في منتصف عقده الثاني لما ينه دروسه الثانوية بعد، محاضرة أو حتى مادون ذلك. كأثر تربوي من آثار التهميش والإقصاء الذي كانت تعاني منه مناطقنا الشمالية ولاتزال، لينعكس ذلك كشكل من أشكال احتقار الذات، الذي تأتي مثل هذه الندوات التكريمية لمحاولة تجاوزه والتغلب عليه بالمزيد من بعث الثقة بالذات والاعتداد

بها، بالإقبال على دراستها لتتبوأ المكانة التي تستحقها تحت الشمس، في عالم لامكان فيه للمحبطين وضحايا الإلغاء. إذن فإن ما عرف عن عبد الحميد من سمو أخلاق وروح نضالية صلبة ودعم للحقوق والحريات والمبادرة الإبداعية كانت روحه الحية معه وفيه، منذ يفاعته، إن لم يكن وعيه بكل ذلك قد تفتح قبله بكثير.

ومن هذا الموقف، ومن هذه الإعتبارات، نشأت علاقة الاعتزاز وروابط الود بيني وبين عبد الحميد، وبينه وبين آخرين، إذ كنا نحس أنه معني بكل ما نضطلع به من أنشطة ثقافية، أفرادا وجماعات، فغداة منع السلطات الإقليمية شفشاون لمهرجان الشعر المغربي السادس، وعبد الحميد آنذاك يضطلع بإصدار مجلة الجسور، هب يحاول رأب الصدع، سعيا منه لوصل ما انقطع بين الجمعيات والسلطات في ذلك اليوم من أوائل الثمانينيات، لكننا ألححنا أن حقنا في الممارسة الثقافية حق مشروع، وأننا نريد تأكيده في ظل ماتسمح به القوانين والحقوق، وليس عن طريق وساطات أو استرضاء شخصي، في زمن كانت السلطات كثيرا ما تخطئ التقدير حينما تجعل «سوء الظن» مبدأ في الحكم على أي نشاط ثقافي، وهو المبدأ ذاته الذي اعتمدته سلطات حكومية، بعد عام، يوم منعت مجلة الجسور وسربا رائعا حقا من أخواتها أيضا : الثقافة الجديدة والزمان المغربي والبديل، لإختراس صوت النقد والحقيقة والإبداع والاختلاف مرة أخرى.

أيها الصديق عبد الحميد...

أنا سعيد بهذا التكريم سعادة كل أصدقائك في اتحاد كتاب المغرب، ومن أعلى كراسي هذا الاتحاد إلى أدناها أقصد : من حسن نجمي، صديقك وصديقنا جميعا، إلى أحمد بنميمون، صديقك وصديق كل مبدع في هذا الاتحاد، أنا العبد الفقير إلى الله، وإلى محبة كل الأصدقاء، داخل هذه الجمعية الوطنية الرائدة، التي نعتز اليوم، كما اعتززنا سابقا، بمواقفها المستقلة، وبذلك عرفت، وكذلك ستبقى، وإن أشار هذا إلى شيء فإلى أن الذين يجعلونك من المكرمين اليوم هم أصدقاؤك في قمة هذا الاتحاد وقاعدته، وأنهم بذلك يقرون لك بفضلك، وبمواهبك، ويدعون إلى تكريس مبدإ تكريم كل من يستحق التكريم، ودعم ومؤازرة كل من يستحق وتحمله على مضاعفة جهوده، وتجويد إنتاجه، متجاوزين بذلك مرحلة كان الناس فيها لايعترفون للمفكر أو المثقف أو للمبدع بفضل أو موهبة إلا بعد أن يفارقهم، ونحن نتمنى لك، أيها العزيز، بمناسبة التكريم هذه، دوام الصحة والعافية، واستمرار العطاء الذي به يغتني وطننا : أي نغتني نحن، عنيت كل معاصريك فطوبى لك.

شفشاون في 5-12-2003

قراءات نقدية

عبد الحميد عقار مترجما

حسن بحراوي

جمعتني بأخي عبد الحميد عقار علاقة تفوق ربع قرن، منذ أن التقينا ذات مساء في ندوة حول الشعر المغربي بمدينة مكناس، وأحب أن أبدأ من الزاوية الأعمق أي العلاقة الحياتية المباشرة التي قامت بيننا منذ أن التحقت **بكلية الآداب بالرباط** سنة 1982، وقد سبقني إليها الأستاذ عبد الحميد عقار بعدة سنوات، وساعدني على أن أثبت قدمي في الدرس الجديد الذي كان قد بدأ ينهض في الجامعة المغربية : درس الرواية، ثم درس السرد بالمعنى العام. وقد ظل دوما الأستاذ عقار، خلال كل هذه الفترة، محركا لشعبة اللغة العربية وآدابها، سواء من حيث المحاضرات، أو من حيث البحوث التي سعدت أن أشارك معه في الإشراف على جملة منها : في مستوى الإجازة أو دبلوم الدراسات العليا أو الدكتوراه.

وسعدت أيضا بسنوات تكليفه بمهام رئاسة شعبة اللغة العربية بنفس الكلية، ثم أتيحت لنا منذ أواخر الثمانينيات في اتحاد

كتاب المغرب -سواء في الفترة التي كان فيها كاتبا عاما لفرع الرباط، أو في الفترة التي انتخب فيها كاتبا عاما للمكتب المركزي- رفقة أدبية وثقافية، في مرحلة تعد بحق من أزهى فترات هذا الاتحاد، خاصة مع الأستاذين **أحمد اليبوري ومحمد الأشعري**. وما زال عقار إلى اليوم برغم عدم قبوله العودة إلى المكتب المركزي(*) يعمل بمثابة عضو فاعل في جميع ما يعرض عليه من مهام ومسؤوليات.

أثارني في المداخلات والمناقشات التي استمعنا إليها في هذه الندوة، ذلك التعبير، الذي تردد كثيرا، بصدد تعدد جوانب شخصية المحتفى به، بحيث لن نستطيع أن نحيط بها، ولا يمكن أن نقدم عنصرا على عنصر، أو جانبا على جانب، وقد تعرض الإخوة إلى بعض منها، وأحب أن يكون حديثي عن **عقار المترجم**. بدا لي أيضا أنه يجوز لنا أن نشبه الأستاذ عقار بجبل الثلج الذي لا يظهر منه إلا القليل، مقارنة بما يخفيه، فهو، مثلما نعرفه جميعا، أستاذ جامعي، وباحث في الأدب، لكنه يتميز عن هؤلاء وأولئك باهتمام ينفرد به انفرادا في المغرب، وهو الاهتمام بالأدب المغاربي، أي أنه وسع من النطاق المحلي لدرس الأدب، إلى دراسة الرواية، والقصة، في الجزائر، وليبيا، وتونس، وموريطانيا. حيث بات يستدعى من قبل محافل وجامعات ومراكز دراسات دولية لإبداء رأيه في

* - يتعلق المر هنا بما قبل سنة 2003، حيث لم يكن قد تم انتخاب الأستاذ عبد الحميد عقار رئيسا لاتحاد المغرب بعد.

قضايا أدب هذه المنطقة، فضلا عن الدعوات المتعددة التي ترد عليه للمشاركة في هذا القطر أو ذاك، للحديث عن الأدب العربي في المغرب الكبير.

وعبد الحميد عقار مثقف عضوي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، سواء في عمله بالاتحاد، أو بجمعيات حقوقية وثقافية، حيث كان دائما ذلك المثقف الذي لا يكتفي بالتنظير، أو الأحاديث الشفوية العابرة، بقدر ما يسعى إلى تأسيس خطاب عميق وممنهج حول الثقافة وأفقها ومصائرها. إنه مناضل جمعوي بالأصالة. وبهذه الصفة عرفناه منذ البداية، سواء في المركزية النقابية : الاتحاد المغربي للشغل، أو في الجمعية المغربية لحقوق الإنسان. في وقت كان فيه من الخطورة بمكان، أن ينخرط الواحد في مثل هذا المسار، كما كان نصيرا وفيا لمعتقلي الرأي بالمغرب، وعانى طويلا من أجل التعبير عن أوضاعهم وقضاياهم. ورابض مع أسرهم وأطفالهم -بسجن القنيطرة خصوصا- ومدهم بالمؤلفات وبالكتب. وكان متخصصا في كلية الآداب بالرباط في الإشراف على بحوث الطلبة المعتقلين، ومنهم صديقنا عبد القادر الشاوي، وكثيرا ما كانت تأتي عناصر الأمن للبحث معه في شأن هذه الرسالة أو هذا البيان الذي خرج من السجن، وظُنّ أن عبد الحميد هو الذي سربه.

وعبد الحميد عقار ناشر كذلك، وهذا أمر لم يلتفت إليه الكثيرون، فقد مر بنا أنه أصدر مجلته "الجسور " التي ابتدأت سنة 1981 وأوقفت سنة 1984 بعد صدور ستة أعداد، حيث أسس

دارا للنشر في أواسط الثمانينيات هي منشورات «التل» وظهرت فيها مجموعة من المؤلفات المترجمة، خصوصا حول تاريخ المغرب، وحول فترة الاستعمار، لكن معرفته بالشأن الثقافي، وإخلاصه له، كانتا تمنعانه أن يكون ناشرا بالمعنى التجاري أو التدبيري للكلمة، وسرعان ما تراكمت الضرائب والخسارات، ووجد نفسه قانعا بأن يكتب، وأن يهتم بالشأن الثقافي بدون أن ينخرط في تسويقه أو نشره.

وهو أخيرا وليس آخرا مترجم، وربما كنت في موقع يسمح لي بالحديث عن صديقي عقار في مجال الترجمة ضمن تخصصات شديدة الدقة، وبالغة التعقيد، إذا ما فكرنا في مجالات : «الشعرية» و«التاريخية» و«البنيويات» و«السرديات»، وفي كل هذه العلوم التي وفدت علينا أواخر السبعينيات، ولم يكن متاحا لقارئ العربية ـ مغربيا وعربيا ـ أن يطلع عليها، لولا أن تدخل عقار بالعمل المباشر مترجما لبعض أعمالها، وبالعمل غير المباشر مراجعا ومحققا وناشرا لبعض منها.

وقد مرت تجربة عقار مع الترجمة من مجموعة من اللحظات، أحب أن أبدأها بتعلمه في مدينة شفشاون، ثم العرائش، والقصر الكبير، والمدن التي اشتغل فيها أو تلقن فيها، فتعلم اللغة الإسبانية على مألوف أبناء مدن الشمال، ثم تعلم الفرنسية كذلك. ولكن هذا التعلم ظل يعتبره نفعيا، حيث كان يسمح له باجتياز الامتحانات والحصول على الشواهد، ولم يحوله إلى معرفة منتجة إلا في وقت متأخر نسبيا وتحت تأثير عناصر عديدة، سنأتي على ذكرها.

يذكر الأستاذ عقار أنه أواخر الستينات عين أستاذا للغة العربية بعد تخرجه من كلية الآداب بفاس، في إحدى الثانويات العتيدة بمدينة الرباط، هي ثانوية مولاي يوسف، وهناك التقى بمجموعة من المناضلين النقابيين، الذين كانوا يقودون معركة تحسين أوضاع التعليم، وكانوا يعانون من نقص واضح في المعرفة باللغة العربية، حيث كانوا في معظمهم ممن تلقوا تعليما فرنسيا. ووجد عقار نفسه مساقا إلى مساعدة هؤلاء في تدبيج البيانات والكتابات التي يستدعيها العمل النقابي. وسيقوده هذا العمل إلى تعميق معرفته باللغة الفرنسية، قراءة وحديثا، حتى يتمكن من المضي في تعريب القيادة النقابية في تلك الفترة. ثم كانت مخالطته للكتاب المناضلين في صفوف اليسار المغربي في فترة الستينيات وبداية السبعينيات من مجموعة مجلة أنفاس، وهؤلاء كانوا أيضا من المفرنسين في أغلبهم، وقد اضطرته معاشرتهم إلى أن يزيد في توسيع أفقه اللغوي، بقراءة عيون الروايات والأشعار والدراسات بلغة موليير، ليتمكن من توسيع علاقاته مع مجايليه من الكتاب والمناضلين من أقطاب اليسار.

ويبدو أن سنة 1979 كانت حاسمة بالنسبة لتجربة عقار الثقافية والفكرية عموما، حيث شهدت تنظيم ندوة الرواية العربية الجديدة بمدينة فاس وهي الندوة التي مثلت نقطة تحول كبرى في تاريخ النقد الروائي العربي الحديث، وسيكون المغرب الواجهة الأولى لهذا التحول الذي أصاب الخطاب النقدي المتصل بالرواية حيث جرى الحديث عن التيارات الجديدة في النقد

الروائي كما تبلورت في أعمال «بارت» و«لوكاش» و«كريماس» و«كولدمان» و«زيما »... وفي هذه اللحظة بالذات ستحدث الانعطافة التي عرفتها الجامعة المغربية، بالحضور والتأثير القويين للأستاذين : أحمد اليابوري ومحمد برادة. كما سيحصل الالتفاف حول المناهج الجديدة في النقد والرواية...

أقول هذا لأقف على السياق الذي أطر الاهتمام الخاص بكاتب سيصبح له شأن خطير في الأوساط النقدية المغربية هو الروسي "ميخائيل باختين". فقد كانت ترجمة باختين إلى الفرنسية قد تأخرت طويلا، ولم يكن أحد من العرب قد كون فكرة عن أعمال هذا الناقد، وهو ما مثل الوازع الذي دفع عقار رفقة مجموعة من أصدقائه إلى العكوف على هذه المرجعية الجديدة، في محاولة لتقديم هذا الناقد الذي ليس ناقدا إيديولوجيا ولا واقعيا اشتراكيا ولا شكلانيا بنيويا بالمعنى المألوف، بل كان يقع في ملتقى هذه التيارات المختلفة، معطيا للأدب دلالته النوعية كقيمة وكإبداع دون فصله عن التطور الاجتماعي ولا عن الصراع الذي يكون في أصل نشأة هذا الأدب.

سيترجم الأستاذ عقار، في هذه الفترة، بمعية صديقه عبد العزيز لوديي ـ أحد اليساريين الذي كان معتقلا في سجن القنيطرة ـ فصولا من كتاب باختين الشهير "شعرية دستيوفسكي ". وذلك قبل أن تصدر الترجمة العراقية، ولا ترجمة الأستاذ محمد برادة في أواسط الثمانينيات، على أن عقار لم ينشر هذه الترجمة، وعندي أنه اعتبرها عملا بحثيا خالصا

يدخل في سياق اهتمامه الأكاديمي بالموضوع، ولم يكن يرغب في تحقيق سبق معين في هذا المجال.

وفي سنة 1981 سيصدر مجلته الجسور، وسيحرص على أن يكون هناك باب مخصص للترجمة، ومعلوم أن هذه المجلة كانت تستقطب معظم الأقلام الفكرية والأدبية التي كانت تقبع آنذاك في السجن، بسبب مواقفها السياسية. وتصوروا معي مديرا لمجلة تصدر كل مقالاتها تقريبا بأسماء مستعارة، لأنها تنشر لأناس ممنوعين من النشر العلني ؛ هكذا سينشر لأبراهام السرفاتي وعبد اللطيف اللعبي وعبد القادر الشاوي، ولفيف كبير من غيرهم، ممن سيجدون في المجلة معبرا لأفكارهم وتصوراتهم في تلك الفترة من تاريخ المجتمع المغربي.

وفي سنة 1984 سيقرر الأستاذ عقار أن يتفرغ من عمله اليومي في الجامعة لكي يشتغل في بحوثه الخاصة، وأذكر هذه السنة لأنها أساسية في مساره الفكري، ذلك أنه سيكتشف ناقدا من عيار ثقيل يدعى فلادمير كريزينسكي، كان يبشر بخطاب يقف في منتصف المسافة بين تحليل الخطاب الإيديولوجي والتحليل السميولوجي، أي لا يفصل النص عن مجتمعه ولا يفرط في أدبيته وعناصره الجمالية. سينشر هذا الكاتب عملا نقديا أسماه "ملتقى العلامات"، وهو كتاب شكل طفرة شديدة الأهمية في الغرب ؛ هكذا يكاتب الأستاذ عقار هذا الناقد وتنشأ بينهما علاقة ثقافية استمرت لفترة طويلة، وسيفتتن بهذا العالم الذي يقترحه فلاديمير كريزينسكي على المنشغلين بالتحليل الأدبي، حتى أنه سيقدم عرضا عن كريزينسكي في موسكو سنة 1989، وسينشر في

أوقات لاحقة ملخصات وأفكار حول هذا الكاتب، بل وسيشركني معه في ترجمة نص طويل وشديد التعقيد لهذا الكاتب يحمل عنوان "باختين والمسألة الإيديولوجية". وكانت هذه العلاقة مع كريزينسكي ذات تأثير قوي على مشروع عقار النقدي ليس فقط لأنه أول من عرف قراء العربية على أعماله ومقارباته، بل أيضا بخصوص التداعيات التي رافقت تجربته النقدية : استلهاما وتطويرا لأفكار هذا الناقد الكبير.

بين سنتي 1984 و1986 سينكب الأستاذ عقار ضمن إشرافه على بحوث الإجازة على ترجمة جزء كبير من كتاب كان يشكل في تلك الفترة نقطة لامعة في التحليل النقدي هو كتاب بيير زيما "الشخص والشخصية"، وهو كتاب يوضح بشكل حاسم الفروقات المفهومية المعقدة بين مقولة الشخص والشخصية في العمل الأدبي.

وفي ربيع سنة 1987 اهتم الأستاذ عقار بكاتب آخر، نعرفه جميعا، هو ميلان كونديرا، وعمل على ترجمة فصول من روايته الشهيرة «خفة الكائن التي لا تحتمل»، ثم دفعه شغفه بهذا الكاتب إلى أن يحاول ترجمة كتاب أساسي آخر له هو «فن الرواية». وبين سنتي 1987 و 1988 سيكلف الأستاذ عقار بالإشراف على مجموعة من الأعداد الخاصة في مجلة آفاق - التي كان قد أصبح محركها الأساسي على عهد ولاية الأستاذ أحمد اليبوري - وسيتكلف على الخصوص بإعداد وترجمة ومراجعة عدد سيصبح تاريخيا من هذه المجلة وهو العدد الذي يحمل عنوان : "التحليل البنيوي للسرد". (سيظهر بعد ذلك

في كتاب مستقل سنة 1990) الذي تجاوز بإشعاعه منطقة المغرب إلى العالم العربي. والذي كان يقدم خلاصة المقاربات البنيوية التي تمت في فرنسا بالذات منذ أواخر الستينيات. ومعلوم أن هذا العمل كان له تأثير قوي في الأوساط الجامعية في المغرب، لما كان يقدمه من تصور جديد لمقاربة النصوص الأدبية. وفي السنة نفسها أي سنة 1988 يقدم الأستاذ عقار على مغامرة استثنائية وهي الدعوة إلى ترجمة كتاب يعتبر متحفيا في تاريخ الرواية بل ربما كان أول كتاب في تاريخ الرواية يحظى بالاعتبار هو كتاب "نظرية الرواية" لجورج لوكاش الذي يعود إلى سنة 1923، ولم يكن أحد من العرب -حتى اللبنانيين الذين يستسهلون الترجمة- بقادر على أن يواجه مغامرة من هذا النوع. وفي السنة نفسها أيضا يشرف على مراجعة ترجمة كتاب ميكيل مارتين "الاستعمار الإسباني للمغرب من 1860 إلى 1956"وهو كتاب أساسي في تاريخ الحضور الإسباني في المنطقة الشمالية قام بترجمته المعتقل السياسي آن ذاك الأستاذ عبد العزيز لوديي وتكلف الأستاذ عقار بمراجعته ونشره ضمن منشوراته، أي منشورات التل.

ومنذ سنة 1995 سيتجه اهتمام الأستاذ عقار إلى كاتب ولع به منذ يفاعته وهو الروائي الإسباني ميغيل دي سيرفانتيس وبالأخص روايته الشهيرة «دون كيخوطي»، وسيهتم بتفحص ومراجعة الترجمات المختلفة لهذه الرواية بدءا بترجمة التهامي الوزاني الناقصة، وانتهاء بترجمة عبد الرحمن البدوي ومن ثم

القيام بدراسة مقارنة بين الأصل الإسباني والترجمات الفرنسية المتعددة لهذه الرواية الشهيرة.

أما في سنة 1996 فسيعمل على ترجمة المقال الشهير "باختين والمسألة الإديولوجية " الذي كان قد أمده به كريزينسكي، وهي الترجمة المشتركة مع كاتب هذه السطور والصادرة في مجلة علامات عدد 16، 1996، وكان قبل ذلك قد لخص أجزاء من فكر كريزينسكي هذا، ونشرها تباعا في مجلة آفاق، وفي منابر أخرى على سبيل التعريف بقيمة هذا الكاتب.

ثم كانت اللحظة الأساسية، من الرحلة الطويلة للأستاذ عقار مع الترجمة، أثناء تكليفه من طرف وزارة الثقافة بإدارة مجلة الثقافة المغربية التي لاحظ الجميع أنه منذ 1999 غيرت من إهابها ومن اتجاهها، واكتست الجدية والرصانة اللافتتين، سواء في المادة الثقافة التي تصدر ضمنها أو من حيث نوعية الأسماء التي تنشر لها، حيث أفرد بابا ثابتا للترجمة كي يواصل فتح الأفق المغربي على مستجداات الثقافة الإنسانية في مختلف المجالات. وكرجل معني بالترجمة كان يشترط على المترجمين أن يمدوه بالأصول ليعمل على مراجعة وتدقيق بعض الاصطلاحات والمفاهيم والصيغ التي تحتاج إلى ذلك. لضمان الجودة والقيمة النوعية لمجلة تصدر عن وزارة الثقافة وتحمل الوجه الثقافي للمغرب في الداخل والخارج.

الخلاصة أن تجربة الأستاذ عقار في مسار الترجمة شكلت، على غير المتوقع، محورا أساسيا من اهتماماته المهنية كجامعي، ومشاغله الثقافية العامة كفاعل في الوسط الثقافي والأدبي

بالمغرب. وإذا كان من المستغرب أن لا يثير هذا الجانب الاهتمام من تجربة الأستاذ عقار فذلك لأن الترجمة كما يقول الإنجليز "عمل غير مشكور" ؛ أي أن المترجم ليس عليه أن ينتظر اعترافا من أي نوع. ولكن الأستاذ عقار، كعهدنا به دائما، يواصل نحته في جدار الترجمة، غير عابئ سوى بالمكافئة الرمزية، أي بازدياد المعرفة التي تتهيأ عبر ممارسة التبادل الثقافي مع الآخر، ذلك التبادل الخلاق الذي لا يمكن للشعوب أن ترتقي بدونه.

صور أربع من علاقة متجددة

عبد الرحيم مؤذن

صورة أولى:

عرفت الأستاذ عبد الحميد عقار، عن بعد، قبل أن أتعرف عليه عن قرب، كان ذلك في بداية الثمانينيات، بعد أن اجتاز المعني بالأمر مباراة الالتحاق بكلية الآداب بالرباط، ومنذ ذلك الحين، اقترح علي -وعلى العديد من الأزملاء- تقديم حصص إضافية في مادة الثقافة العربية بالكلية. وظلت صورته التي ستترسخ فيما بعد، بالملامح ذاتها مستمرة إلى اليوم : ضاحك بقهقهته المعهودة القصيرة النفس، والمتقطعة بجمل استدراكية متواصلة. نادرا ما تراه غاضبا، أو قل، إنه يغضب ضاحكا، ويضحك غاضبا إذا جاز قول ذلك. عدو لدود للبذلة الرسمية بشكل دائم، خاصة ربطة العنق، إلا ما اقتضته الضرورة. "جاكتة" زرقاء، غامقة اللون، ومثلها "بنطال" بلون قريب منه. عدو للمحافظ، صديق للملفات. حذاء أسود غالب الأحيان. "عامل يشتغل بالثقافة". كذلك كان، وما يزال على ما أعتقد.

قبل ذلك، أو بعد ذلك، كنت أراه، من خلال الأحلام الكبيرة التي ضاقت بها الأرض بما رحبت ؛ طاردها الأعداء، وأحبها الأصدقاء، أو الكثير منهم، ذلك -كما يقول محمود درويش- "الحب القاسي"، دون سوء نية أو تعمد. كان الصدى السبعيني ما زال طازجا بين جدران الجامعة المغربية التي كانت بالنسبة إلينا جامعة في جامعتين :

-جامعة متجهمة بتقاليدها العلمية الصارمة ومقرراتها المتوارثة وعمادتها الأكثر صرامة التي لم يخفف من صرامتها سوى الأصوات الجهورية لأساتذة كانوا، بالنسبة إلينا، أقرب إلى الأنبياء. وكنا نختلس، في هذا السياق من الزمن لحظات سريعة أثناء نزولنا من "فاس" إلى "الرباط" لنتأمل القامة المهيبة لـ "نجيب بلدي" وهو يطوي مراحل الفكر الأخلاقي، أو نتابع اجتهادات العميد "محمد عزيز الحبابي" وهو يحول الفلسفة إلى ممارسة يومية، مفكرا -كما فعل المشاؤون قديما- برجليه. ونعود إلى "فاس" لنكتشف تحولات أخرى في الشعر والحداثة و"ربيع براغ" الإداري الذي أصبح فيه من حق الطالب، أيام أستاذنا "أحمد اليابوري"، مراجعة درجات التنقيط، بعد أن وجدنا في الأساتذة الشباب سندا : أحمد المجاطي، محمد برادة، إبراهيم السولامي... وهم يذرعون فضاءات الكلية بخطوات عادية واثقة تختلف عن أساتذة آخرين كانوا يمشون فوق البيض، وهم ولا يملكون منه القليل أو الكثير !.

-أما الجامعة الثانية، فهي الجامعة الموازية، جامعة المقررات الإشكالية والأفكار المتمردة المتسربلة بالحلم والرفض والمعرفة

أيضا. جامعة "**تحت أرضية**" تسمو على جامعة "**فوق أرضية**" ولكنها أشد ظلاما، ذات ضوء شاحب، في حين كانت الجامعة الـ "التحت أرضية" ذات شمس ساطعة لا تغيب.

للمثقف، إذن، في تلك المرحلة منزلان : "منزل بيولوجي" ومنزل "إديولوجي". هكذا كانت صورة المثقف العضوي قد بدأت في التخلق قبل ظهور النظرية. فـ "**مشروع المثقف**" آنذاك لم يخرج من صلب الكتب فقط، ولم يخرج من طرق "**الأنترنيت**" كما هو حاصل الآن ؛ بل خرج من رحم الصراع والمعاناة حول هذه الكتب، حول أحلام اختبروا مصداقيتها على أرض الواقع. وبالرغم من تعدد المرجعيات والمنهجيات (ماركس /لوكاتش /جولدمان/ ألتوسير/ جرامشي/ محمود أمين العالم/ سلامة موسى/ ماو/ ماركوس/ غيفارا/ بنبركة/ هادي العلوي/ طيب تزيني/ مهدي عامل...)، ثم في مرحلة لاحقة طعمت هذه المرجعية بمرجعيات أخرى (باختين/ كريزينسكي/ أوزبينسكي/ لوتمان/ زيما/ بارت/ جنيت/ بورديو...) أقول بالرغم من ذلك، كانت عين المثقف المنتمي إلى هذا الجيل لا تغادر الواقع الذي تأثر بالنص، وهذا الأخير تأثر، بدوره، بالواقع. هكذا كانت الثقافة، عند هذا الجيل، حلما بتغيير النص وتغيير الواقع في آن واحد.

صورة ثانية:

في هذا السياق، كان الهدف من بحث الأستاذ عبد الحميد عقار المعنون ب : "الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب" (منشورات شركة النشر والتوزيع المدارس، البيضاء، 2000)، هو إعادة التفكير

في الخطاب الروائي المغاربي، انطلاقا من الأسئلة الجديدة التي يثيرها هذا الخطاب. وفي ضوء نصوص هذا الخطاب، أولا وأخيرا. وبرؤية تستلهم تداخل المعارف، وتحاورها قدر الإمكان. مع الإخلاص الدائم، وهذا الأمر لم يغادر الباحث إلى اليوم، للهمّ الاجتماعي الذي ما زال يحمل وشم أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل.

إن الاهتمام بالرواية، والرواية المغاربية خاصة، انطلاقا من الثمانينيات يعود إلى تحول هذه الرواية إلى ظاهرة أدبية لغوية اجتماعية تداولية. إنها -دون إصدار حكم قيمة- مؤشر على تحولات عميقة في الفكر والمجتمع والذائقة الأدبية سمحت لها - وهي مازالت قيد التكون حسب المفهوم الباختيني- بأن تمتلك خطابا مميزا مغامرا جريئا ديمقراطيا، بعد أن خفتت حدة الخطاب السياسي، وأنهك الخطاب النقابي، ووئد خطاب البؤر الحالمة !

لا يعني هذا الكلام أنني أضع الخطاب الروائي في مرتبة واحدة مع الخطاب السياسي والإيديولوجي، ولكنني أعني قدرة الخطاب الروائي على قول ما يجب أن يقال دون الخضوع للتكتيك أو الاستراتيجية، للأسبقيات أو الإكراهات والتوازنات... وربما يعود ذلك إلى المرونة المورفولوجية لهذا الخطاب الذي يستطيع التكيف مع ضغط القيود التيماطيقية والبنيوية للغة الطبيعية. وهذا حسب كريزنسكي "ما يجعله مرتبطا بنسق القيم السائدة، وقدرته على تشخيص المتغير من أنماط الوعي والذهنيات والأشياء والأمكنة" (ص 44).

ولعل هذا ما يفسر عنونة المؤلّف بكلمة/ مفتاح، كلمة (التحول) بهدف قراءة إواليات تطور الرواية المغاربية، وبعض تجليات ذلك التطور وما يوحي به من أبعاد جمالية وشكلية... (ص 7). ولما كان البحث يدور حول الرواية المغاربية المكتوبة بالعربية، فإن البحث يرصد مظهرين أساسيين لهذا التحول :

أ- مظهر اللغة الروائية ومستوياتها.

ب- مظهر تشكلات الخطاب الروائي.

ومن المؤكد أن التركيز على هذين المظهرين ينبع من رصد المؤلف أو الباحث لجوانب التجديد التي لحقتها خلال العقدين الأخيرين عبر (18 رواية) صادرة ما بين 1973 و 1989.

المعالجة، إذن، هي معالجة الوضع اللغوي -من خلال النص الروائي- المغاربي، وتفاعل -من ناحية أخرى- الإنتاج الأدبي مع هذا الفضاء، الفضاء المغاربي.

غير أن هذه المعالجة لم تكن "دراسة تقنية" باردة، بل -كما سبقت الإشارة- كانت دراسة تعكس مسؤولية الباحث في بلورة أسئلة المجتمع إلى الحد الذي يشير فيه الباحث إلى أن حالتي "الإخفاق ووضع الشعور بالعجز هما المنبع الروائي أو الإبداعي مغاربيا وعربيا. وفكرة الإخفاق هاته يقابلها في الأعمال التاريخية النقدية فكرة التخلف" (ص 30).

أليست هذه صياغة جديدة لبعض الأطروحات اللوكاتشية التي

لم يعد فيها البطل إشكاليا بل النص ذاته لحقته هذه الإشكالية في جوانب عديدة؟.

ولو حاولنا متابعة بعض جوانب هذه الإشكالية من خلال نص روائي معين وليكن نص "الفريق" لعبد الله العروي لوجدنا تركيز الباحث على "شعرية التعدد اللغوي" (ص29)، منطلقا من رواية لا تركز على لغة واحدة، أو خطاب واحد، بل إنها تعكس "السوق اللغوية" - وهذا تعبير للباحث- التي تعكس بدورها أنماط الوعي المتصارعة. ولاشك أن استفادة الباحث من منهج الشعرية في قدرتها على مقاربة هذا التعدد، فضلا عن "علم اجتماع النص"، دون نسيان آبائه الرمزيين (باختين/ كريزينسكي/ زيما...)، أقول، إن استفادة الباحث من ذلك، سمحت له بتجاوز منظور "الرؤية للعالم" (البنيوية التكوينية) نحو تقديم العالم الاجتماعي من حيث هو صراع بين لغات اجتماعية وفردية "تظهر في البنيات الدلالية والسردية للتخييل" (ص 33). والأمر ليس بالأمر السهل، فهو أقرب إلى سل الشعرة من العجين، أو - على حد تعبير "جبرا إبراهيم جبرا"- تشريح فراشة بسيف، فراشة لا يمكن الفصل بين ألوانها وتداخل مكونات جسدها الوبري، خاصة أن اللغات السردية، عامة، لا تخلو من التباسات في الإرسال والتلقي. وبفضل هذا التعدد اللغوي، انتشرت مستويات أخرى من التعدد عن طريق حوارية حسب باختين- مكونة من تشخيصات "أصناف الكلام والأساليب والتصورات الملموسة اللازمة له" (ص 81-80).

الرواية، إذن، "جنس لفظي بامتياز" (ص 80). وتعد هذه

الخلاصة من أهم إضافات هذا البحث، فضلا عن جوانب أخرى يمكن إجمالها في الآتي :

1-لم يعد الملفوظ أداة للتعبير الروائي، بل أصبح موضوعا للتعبير ذاته (ص 80-81).

2-لم تعد اللغة الروائية علامة عادية، بل أصبحت دالة على التحول الروائي بالمغرب العربي، إن لم تكن مصدرا من مصادره وأحد مكوناته الرئيسية.

3-أصبحت اللغة قطبا، أو مدارا، لتشييد خصوصية الخطاب الروائي المغاربي النابع من صلب الحداثة. علما أن هذه الأخيرة مدينة للغة الروائية بالشيء الكثير. وتكفي الإشارة -في هذا السياق- إلى دور اللغة في تحرير المخيلة من قيود الإكراهات المتوارثة، والمنظورات التقليدية الحجرة للغة والتعبير، فضلا عن وظائف الكلام الأدبي في لحظات البوح والدعابة والضحك، ضدا على "الطابو" ومظاهر الحظر المختلفة.

4-وعندما نحاول التعامل مع ظاهرة في الرواية المغاربية فإننا نلمس دور الاشتغال اللغوي في إثراء المواقف والتصورات الروائية بوصفه تعبيرا وموضوعا للتعبير في الآن ذاته (ص 85).

5-ولعله أصبح من الثوابت في الممارسة النقدية الحالية الحديث عن مظاهر التشخيص الأسلوبي، في سياق تحولات الخطاب الروائي المغاربي، من تنبير وتوظيف إبداعي لسجلات اللغة اليومية (الشعبية) وتوليد لغات جديدة من الرطانات واللهجات واللغات بوظائفها التكوينية والتناصية، تهجينا أو

باروديا ساخرة من جهة، أو صوغا ذاتيا -من جهة ثانية- لهذا الخطاب.

هذه المظاهر المختلفة للتشخيص الأسلوبي ابتعدت عن المونولوجية الأحادية، وخلقت -من ناحية أخرى- توليفا بين الراقي والعادي (الوضيع)، بين المعياري والهامشي... إلى غير ذلك من الثنائيات الطباقية التي سمحت بإعادة النظر في الكتابة (الخطاب) الروائية المغاربية، بهدف استقصاء ملامح التجديد (أو الإضافة) في النص الروائي العربي عامة، والمغاربي خاصة، عبر نماذج روائية دالة استثمر فيها الملفوظ الروائي بصيغ عديدة، فـ"الطاهر وطار" في "عرس البغل" يبتعد عن رواية الأطروحة، وهي التي استبدت بالإبداع الجزائري (أدب/سينما/ مسرح...)، مستثمرا الهزلي l'humour، بأبعاد هجائية Satirique تنتهك ما يجب أن ينتهك من مظاهر عديدة وشخصيات محددة، أما "واسيني الأعرج" فهو يخلق تناصا رائعا بين تغريبة "بني هلال" وتغريبة "صالح بن عامر الزوفري"، مؤسسا لسيرة روائية جديدة على أنقاض السيرة التراثية بواسطة النفي الباروي الساخر المنتج لعالم استعاري رمزي.

وفي سياق السرد التراثي، يتقدم "محمد المسعدي" التونسي بنصه الشهير "حدث أبو هريرة قال" من عمق السرد التراثي العربي ضدا على السرد الغربي، محولا اللغة الروائية إلى لغة صوفية، تأملية، شعرية، لا تتنصل من القديم، ولكنها في الآن ذاته، تعبر عن "الشعور والفكر الحديثين" (ص 92). وستظهر في السياق ذاته أسماء الجيل الجديد مثل "فرج الحوار" و "صلاح

بوجاه" بهدف استرجاع أساليب الترسل من اعترافات، وإسرار، وترتيل، وغيرها من التعالقات النصية المطعمة بمظاهر الباروديا الساخرة.

ولم تبتعد عن هذه الدائرة نصوص مغربية أخرى (عين الفرس/ أحلام بقرة...) مستفيدة بالنسبة للأولى من الموروث الديني والرسائل الديوانية، واستفادت الثانية من الأسلوب القرآني والخطابات المحايثة له، دون التخلي عن صيغ الخطاب الروائي الجديد، خاصة الصيغ العجائبية والساخرة المخترقة للخطاب التقليدي، والمدمرة _ من جهة أخرى _ لمحتواه الوثوقي ورتابته اللغوية. وبالإضافة إلى هذا وذاك، فالجامع المشترك بين هذه النصوص، ونماذج أخرى، يتجسد في السخرية كخطاب يصبح :

أ _ هجائي النبرة.

ب _ عاكسا لشخصية شطارية (بيكاريسكية) في الموقف والبناء.

ج _ محطما للمونولوجية، ومستنبتا _ من جهة أخرى _ للحوارية في اللغة والحوار أيضا.

وتجسد رواية "الفريق" لعبد الله العروي نموذجا ناصعا لهذه الحوارية، بفضل الأجناس المتخللة، والسجلات المتعددة التي وسعت من الأفق اللساني عربيا، أمازيغيا، أوروبيا، فضلا عن لغات الفئات الاجتماعية من عمال وأحزاب وجمهور الملاعب الرياضية وموظفي الإدارة والمنتخبين ... إنها اللغات الفردية، الجماعية، المكتوبة، الشفاهية، المقدسة، المدنسة ... كل هذا

التعدد يعكس، في جوهره تعدد المصالح. والقالب الروائي أداة رئيسية سمحت للسارد بالتماهي في "كلام الغير ويذيبه ويعيد تشخيصه" (ص43).

وإذا كانت الرواية الموريطانية ما زالت في بداية مشوارها الإبداعي، قياسا إلى الشعر أو القصة، فإن ذلك لا يعني غياب هواجس اللغة عن الساحة الثقافة الموريطانية.

أما التجربة الليبية، من خلال إبداعات "أحمد ابراهيم الفقيه" و "ابراهيم الكوني"، فإنها تسمح بإثارة أهم سمات التجريب البارزة في اللغات المحلية، والفضاء الصحراوي، بحمولته الثقافية والنفسية والتاريخية. كل ذلك في سياق خطاب روائي "ما زال يبحث عن موقع متميز".

صورة ثالثة :

هذا الرسم السريع للكتاب يدفعني، من جديد، للرجوع إلى البدايات، بدايات التأليف، يوم أن كان نطفة، فعلقة، ثم مضغة، ليستوي كائنا مكتملا. البدايات كانت طموحا لمعالجة _ إذا لم تخني الذاكرة _ السرد المغاربي قصة ورواية ؛ خاصة أن طبيعة هذا السرد تداخلت مع الأسئلة الإيديولوجية الحارقة لمرحلة السبعينيات وبداية الثمانينيات. أو بعبارة أخرى كانت طبيعة هذا الخطاب بعيدة عن الخطاب الرسمي من جهة، والخطاب المعارض (أحزاب/ نقابات ...) من جهة ثانية، كلاهما غيب الذات، وكلاهما غيب الأصوات الناطقة والصامتة في آن واحد. وإلى حدود السبعينيات، كما جاء في الكتاب (ص 21)، كانت القصة القصيرة

سيدة الميدان وكان الخطاب الحايث لها ـ من جهة ثانية ـ هو خطاب الالتزام، بالمعنى السياسي، خطاب الثورة والتغيير. أما في بداية الثمانينيات، فالملاحظ أن الرواية أصبحت تعرف نموا هاما في التراكم والقراءة والنقد والبحث والتدريس، وشكلت ملامح انكسار المشاريع الكبرى، والأحلام المجهضة، حافزا سرديا جديدا للابتعاد عن واقعية تقليدية ـ واقعية القرن 19 ـ والتمهيد ـ من جهة أخرى ـ لصيغ جديدة تجريبية بعد أن ظلت، طوال الستينيات والسبعينيات، حبيسة "انشغالها بتصوير الصراعات الوطنية الاجتماعية من منظور اجتماعي أطروحي أو نقدي إشكالي في الغالب الأعم" (ص 30).

وأعتقد أن من بين الإضافات ـ فضلا عن السابق ـ الهامة في هذا البحث، إخلاصه للثوابت الفكرية لصاحبه، وهي ثوابت ما زالت تؤمن بالتغيير والانتصار للذين لا أصوات لهم، أو لعل أصواتهم بحت من الصراخ، أو ركب لها كاتم صوت !! والفارق الجوهري في هذا التوجه الجديد، بالقياس إلى خطاب السبعينيات والثمانينيات، هو إنتاج خطاب نقدي يبحث فيه المؤلف عن خصوصية السرد الروائي بعيدا عن لعلعة الخطابات السائدة. وأهم عناصر هذه الخصوصية عنصر اللغة، بالتجليات المشار إليها سابقا، والمنفتحة على "فضاءات الحلم المدهش والساخر والعجيب واليومي والتراثي، وبالتشخيص الأدبي للتعدد اللغوي والأسلوب الذي يخترق الفضاء المغاربي، كل ذلك بأفق تجريبي واضح" (ص 21).

ولما كان مصطلح التجريبية من أكثر المصطلحات التباسا، فهما

وتطبيقا، فإن ذلك لم يمنع، كما أكد على ذلك الكاتب، من أن "الرواية أكثر الأجناس الأدبية بالمغرب العربي قدرة على تشييد هذه الخصوصية وإبداع تلك الفضاءات" (ص 28). ويبدو ذلك جليا، من خلال منتوج البلدان المغاربية على الشكل التالي :

1- متن روائي متكامل (18رواية) تجسد فيه الرواية "متتالية دينامية متميزة".

2- والتعامل مع النص المفرد سمح بتعميق الخصوصية النصية المفردة من ناحية، والقواسم المشتركة من ناحية أخرى.

3 -المزج بين الشعرية بأهداف تنظيرية، وبين التحليل النقدي ذي المسعى الإمبيريقي والاستقرائي بالضرورة. وبذلك كان العمل يفتح أفقا جديدا للبحث عن "نظرية للرواية العربية المكتوبة بالمغرب".

4- الاستفادة من غنى المعرفة وتعدد مناحيها بعد أن كان الخطاب الروائي، في السابق، خطابا أحاديا، أدبيا، نقديا محضا ؛ يكتفي فيه بالمصطلح الأدبي، وكأنه مغسول بمياه مطهرة، في حين يمتلك هذا الخطاب امتداداته المعرفية والأدبية، القادرة على التشخيص أو الصوغ الذاتي للغة، من خلال ملفوظ سارد يحول السرد الروائي إلى نص قابل للتحليل والقراءات المتعددة.

5 -وفي هذه النقطة بالذات تنضاف إلى الكتاب ميزة أخرى، لم تجعل من اللغة أداة معيارية قد لا تتجاوز انزياحها الدلالي أحيانا، أو طرافتها التعبيرية أحيانا أخرى. بل إنها

جزء "من حوار واسع بين جماعات يمكن لمصالحها ورؤاها أن تدخل في صراع معين". ومن ثم، فهي ليست بنيات مغلقة، أو قواعد متحجرة، بل إنها أنماط من الملفوظ، له امتداداته في الخطابات الاجتماعية الحاضرة والغائبة، المباشرة والغير المباشرة، الساخرة والجادة، المحاكية والمقلدة، الجماعية والفردية... وأعتقد أن المدخل الهام ـ وهذه إضافة أخرى للكتاب ـ والذي لا يخلو من جرأة ومغامرة، في نفس الآن، والذي يحمل عنوانا إشكاليا (المغرب العربي والوضع اللغوي)، يطرح على القارئ (المتلقي) أسئلة تتجاوز البحث والنقد الأدبيين، نحو أسئلة الداخل والخارج، الداخل نصيا والخارج لغويا. والانتقال من مفاهيم ما زالت تمتلك سحرها الخاص (الرؤيا للعالم على سبيل المثال لا الحصر) إلى الرؤية اللغوية المشخصة لهذا العالم، بين اللغة الروائية الواحدة والوحيدة في العرف النقدي السابق، والتعدد اللغوي الذي للمؤلف والسارد والشخصيات وكل المتكلمين في النص الروائي، بين المنهج الاجتماعي ومنهج الشعرية الرافضة لاحتكار الخطاب ومركزته في اللغة ...

- من خلال ما سبق كانت اللغة الروائية، والعالم الروائي برمته، أداة مركزية للتعبير عن حالات الإخفاق والعجز مغاربيا ـ وكلنا في الإخفاق والعجز مغاربيون ـ بواسطة النص الروائي الذي بالرغم من حداثته، بالقياس إلى المشرق، استطاع أن يطرح المسكوت عنه عبر الأسئلة الحارقة، أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل.

صورة رابعة :

الأستاذ عبد الحميد عقار :

أ ـ هل انتهى زمن الرواية الأطروحة ؟ هل أنجز المغرب روايته التاريخية؟

ب ـ هل يمكن تلمس ملامح الخصوصية في الخطاب الروائي المغاربي، ونحن لحد الساعة ما زلنا لم نحسم، بعد، إشكالية عروبة الرواية العربية ؟.

التحول الروائي: الماهية والتجليات

قراءة في كتاب: "الرواية المغاربية" لعبد الحميد عقار

شرف الدين ماجدولين

تمثل قراءة الخطاب الروائي سياقا مثاليا لسبر الخبرات الجمالية والرؤى الفكرية، واستبطان المعرفة بالتاريخ والمجتمع والثقافة، في الآن ذاته الذي تشكل فيه فرصة استثنائية لبورة الأسئلة المتصلة بقناعات الناقد الفكرية وتشخيص انحيازاته العقدية والسياسية، وتطوير حدوسه بصدد الذات والمحيط واللغة والمتخيل. وبقدر ما يمكن أن نقرأ في تطور المشروع الروائي مسارا لانزياحات الوعي بآماد الأدبية، نستطيع كذلك -من منظور تأريخي لعملية القراءة الموازية- أن نعتبره حيزا مركزيا لاستكشاف تحولات النظر النقدي، وتغاير قيم التحليل والتأويل الخطابيين، التي تبقى وطيدة الصلة بانشغالات الناقد الثقافية، ومواقفه الفكرية، ونوازعه وأهوائه الفنية والجمالية.

والظاهر أن محاولة الفصل بين مضمون الانحيازات العقدية لناقد الرواية ومنظوره الدنيوي وبين حدوسه القرائية بصدد النص الروائي في امتداداته الزمنية والجغرافية، لا يمكن إلا أن

تحجب عنا مجموعة من الحقائق المتصلة بالمعين الخاص لتجربة الناقد وإنجازه المعرفي وتأثيره في مشهد التداول الروائي، كما أن من شأنها أن تصرف الوعي عن إدراك خصوبة عملية القراءة وتعدد مقاصدها ورهاناتها بقدر تعدد المآب الروائية وتنوع غاياتها ووظائفها.

وفي هذا السياق يمكن أن نرى في كتاب : "**الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب** (1)" للناقد المغربي عبد الحميد عقار، تشخيصا دالا للخطاب النقدي المتعدد الرهانات النظرية والتحليلية والتاريخية والمقارنة، المؤسس على قاعدة سؤال ثقافي يشج الدوال الروائية بمدلولاتها نسقية، ويصل الأبعاد الجمالية للأنماط الأسلوبية والأنواع التخييلية والاختيارات السردية بسياقاتها الحاضنة، كما يشج التجليات النصية للتعبير الروائي بأسسها الفكرية ومراجعها القومية وقواعدها الإنسانية.

والحق أنه إذا كانت الرواية العربية عموما قد حظيت بمجهودات تحليلية وتنظيرية على قدر كبير من التنوع والغزارة سواء في المقاربات التي تأسست على البعد الجغرافي في دلالته القطرية المحدودة، وميزت موضاعاتها توصيفات من قبيل : "**الرواية المغربية** "و"**الرواية المصرية** "و"**الرواية العراقية...**" أو تلك التي تنهض على مفاهيم نظرية ذات الهاجس التصنيفي المتصل بالأنواع الروائية : كـ"**الرواية التاريخية**"، و"**الرواية الواقعية**"، و"**الرواية العربية الجديدة**"، و"**الرواية النسائية**"، و"**رواية السجن السياسي**"، و"**رواية المنفى**"،... أو حتى تلك التي تنبعث من منطلقات تاريخية/ قومية، كـ"**أصول**

رواية النهضة"، و"**الرواية زمن الحماية**"، و"**رواية التيار القومي**"، فإن الكتاب الحالي يتميز بطرافته النقدية في مجال الكشف عن وحدة ثقافية مفترضة في كيان إقليمي هو "المغرب العربي" من شأنها أن تحقق العديد من شروط الإبداع المتجانس بين أقطار تجمع بينها صلات اللغة والدين والعرق والتاريخ المشترك، وهو الرهان الثقافي الذي يكون بالإضافة إلى الرهان النقدي المرتبط بتأصيل وتطوير مفاهيم الإنشائية السردية، المآرب المركزية للكتاب ومقاصده الفكرية البعيدة.

ينطلق الناقد من قناعة مبدئية تعتبر :

"الفضاء المغاربي رغم تجزئته الإدارية والسياسية ذا وحدة إنسانية وثقافية ظاهرة، ولا يقوم على قوميات تمزقها اللغة والتجارب التاريخية. إنه فضاء محكوم بتنوع جغرافي وثقافي ولغوي يعتبر منبع ثراء وإخصاب، إذا ما توفرت الظروف السسيوثقافية لإدارته واستثماره. فالتحديد الإثني لهذا الفضاء يمتلك من الناحية الثقافية تقاليد ومؤسسات وبنيات اجتماعية متشابهة أو متقاربة على الأقل، مثلما يمتلك الفسيفساء اللغوية التي يمتلكها المغرب العميق. إننا نلمس ذلك في مختلف التعبيرات الفنية والثقافية ، ونلمسه في الأدب والشعر وكذلك في طريقة بناء البيوت، وطريقة السكن والزراعة والتبادل."(ص 12-13).

من هذا المنطلق فإن البعد المغاربي يتحول إلى أفق مفتوح

على التعدد والاختلاف، قرين الغنى المرجعي. في الآن ذاته الذي ينطوي على عوامل وحدته وتسانده، بما هو نسق فضائي، وامتداد عاطفي، ولوحة تخييلية وجمالية ذات سمت متعدّ، و عمق كوني. والظاهر أن هذه القناعة المبدئية هي التي ستحدو بالناقد إلى محاولة استكناه أسس ثقافية ثابتة لمشهد روائي متحول، والعمل على استبطان مرجعيات موحدة للذهنية المغاربية في تجلياتها القطرية المتغايرة، حيث ستغدو مفاهيم "**الوطنية والعروبة والإسلام**"، و "**التناظر** " بين الحقلين الرسمي والشعبي، و "**العلاقة الركبة بالآخر** "المراوحة بين الانفتاح ورفض الهيمنة، و "**التعدد اللغوي**"، عوامل ثراء وإخصاب في المنجز النصي الروائي ؛ بغير إدراك أبعادها يعسر فهم النسق الثقافي المغاربي والتغلغل في أشكاله التعبيرية المختلفة.

ولعل سعي عبد الحميد عقار إلى تمثيل مرجعيات التجانس الثقافي المفضي إلى مشهد موسوم بالمغايرة والتنوع، واستقصائه لمناحي تبنينه وتفاعله، بما هو مجال نصي، وبوصفه قيما جمالية متعالية، ونسقا ذهنيا مجردا، محكوما بالائتلاف على جهة الضرورة التاريخية والحضارية، ومجبولا على الاختلاف على جهة الحرية الإبداعية، سيكون من شأنه أن يحصل غايتين مركزيتن : أولاهما تتعلق بالمبنى الروائي بما هو مسار من التحولات. وتتعلق الثانية بقاعدة الإنجاز الروائي من حيث هي تجليات وعي وخبرات مختلفة وإن تأسست أو آلت إلى أفق ثقافي متجانس.

من هنا سيكون الدال المركزي في المقاربة مرتبطا أشد

الارتباط بالظلال المعنوية لمفهوم "**التحول**" : سواء بالنظر إلى عاقدة التمثيل : أي "**اللغة** "بمستوييها المرجعي والإنشائي، أو بالنظر إلى آلية التشكيل متمثلة في "**الخطاب الروائي النوعي**." وبناء عليه فإن مفهوم "التحول" سيرتبط في خطوات التظهير النصي بسلسلة من الدوال النظرية والإجرائية من مثل مقولات : "**التعدد اللغوي** "و "**الصوغ الحواري** "و "**الهجانة** "و "**السخرية**"، وهي مفاهيم ترصد إيقاع "التحول" من الاستعمال اللغوي العام إلى التداول الفني، كما تستكنه مسار المغامرة الروائية المغاربية وتستبطن طاقاتها التجريبية، ومن ثم تبدو بمثابة محصلات تجريدية تهم نسق التحول الشامل، أكثر منها مداخل تفسيرية لظواهر التنويع الأسلوبي في التجليات الروائية الجزئية، وذلك بالرغم من صبغتها القولية الثابتة الناتجة عن ارتباطها بمرجعياتها الأصلية في متون : **ميخائيل باختين، وكريزينسكي وبير زيما** ...

يقول عبد الحميد عقار في فقرة دالة من الفصل المعنون بـ"اللغة الروائية وآفاق التجريب في الرواية المغاربية" :

"[إن] معرفتنا بالخطاب الروائي ستظل ناقصة ما لم ندرس خصائص الكلام الروائي وتشخيصاته النوعية، والوسائل اللسانية والأسلوبية التي يتوسل بها الكاتب ليضفي على المواد الماقبل أدبية وغير اللفظية طابعا أدبيا متميزا. غير أن تنوع القضايا التي يطرحها تناول اللغة الروائية يفرض علينا منهجيا شيئا من الاختيار والتحديد. فاللغة الروائية

مطروقة في هذا السياق من زاوية كونها علامة دالة على التحول الروائي بالمغرب العربي، ومصدرا له وأحد عناصره التكوينية في الآن ذاته. مدار هذا التحول واتجاهه هو تشييد خصوصية الخطاب الروائي التي هي عنوان حداثته" (ص 81).

إن الوعي بالتحول -إذن- مثل منطلق الناقد إلى إدراك الماهية الروائية ذاتها، جملة، قبل أن تتشذر إلى تفصيلات جمالية وأسلوبية وتخييلية وسردية ؛ فالرواية كون رؤيوي مختزل لتحولات المجال الدنيوي وتبدلات الأصل، يشق سياقا من الخصائص التمثيلية التي تراعي كما الحياة مقتضيات الزمن والفضاء والامتداد والإيقاع والبداية والنهاية، قبل أن يضحى حياة بذاتها مستقلة بقيم تحولاتها الخاصة وسجايا تعددها الرمزي المتعالي، وإنما سيتم النظر إجرائيا في الخصائص المميزة للغة الروائية عن قاعدتها التداولية، بما هي سمات تكوينية لأفق المغايرة المطردة التي سيشهدها الاستعمال الروائي المخصوص لتقنيات "الاختيار" و"الصوغ" و"التكييف المتعدد" للسجلات الكلامية المعطاة ووظائفها في توليد "التحول" وطبعه في الرواية المغاربية. مثلما أن تشكلات تلك اللغة لن تدرك بمعزل عن السعي الحثيث الذي نلمسه في أعمال منجزيه -من أمثال: **عبد الله العروي، وعروسية نالوتي، وواسيني الأعرج والطاهر وطار وعبد القادر الشاوي** ...وغيرهم- إلى إنجاز حداثتهم، بالتوازي مع تراكم صيغ التجريب بإبدالاتها المختلفة ؛ وما تستتبعه من تنويع في الأشكال والرؤى والصيغ التشخيصية. وهو

ما يفسر ارتباط التفصيلات الروائية الجزئية بمقولة التحول الروائي الكلي الذي سينجزه الروائيون في تفاعل جدلي مع تطور مشاهد المجتمع والفضاء والثقافة. يقول الناقد :

"[إن] تحولات الخطاب الروائي الناسجة لخصوصيته ومآزقه وحداثته تستمد مشروعيتها وتتغذى من سياق ثقافي وفكري عام. هذا السياق يتصل بما يميز حركة التأليف في حقول الفلسفة والتاريخ واللسانيات والإيديولوجيا من خصوبة وتفتح وتوجه نقدي، وما يطبع مناهج التفكير فيها من تساؤل وبحث وعقلانية، وما تتسم به الخلاصات والأبنية التي تصوغها من تنسيب وتجذر في الزمان والمكان، بهما سيكون في إمكانها أن تلتقي بما هو كوني وإنساني. إن عملية التماثل والاستمداد ذات الصبغة الحوارية بين مختلف هذه الحقول تمثل أحد شروط تجاوز الإبداع الأدبي والفكري بالمغرب العربي لذاته ولحدوده اللسانية، وتأكيد قابليته للانخراط في الفضاء الكوني من موقع مغاير ". (ص 175).

إن هذا الربط الجدلي بين تحولات الشكل التعبيري وتحولات النسق الحاضن، وبين النظر في أسباب الوحدة وقيم التعدد، وبين سجايا الأصل وخصائص التجليات، لهي ما يمنح العمل الحالي طرافته النقدية التي تنتقل به من مجرد دراسة لتجارب روائية فردية في فضاء حصري، إلى البحث عن ينابيع رؤية

نقدية منفتحة على الأفق الروائي عموما، وما يستتبعه ذلك الأفق من إحالة للنظر في تعقيدات المراجع والأنساق والرموز المشكلة لمدار الإنجاز والتطور الروائيين.

هكذا يتناول عبد الحميد عقار في مقاربته لمسارات التحول منجزا نصيا يصل بين أنواع روائية متعددة تراوح بين حدود "**الواقعي** "و "**العجائبي** "و"**التاريخي**"و " **السير ذاتي**"، وتتوزع على الجغرافيا المغاربية بمختلف أقطارها، مع تركيز على المنجز المغربي والجزائري الذي حظي بالشق الأعظم من حلقات المقاربة، وقد شكلت **تجارب الميلودي شغموم ومحمد الهرادي وعبد الله العروي وعبد القادر الشاوي، والطاهر وطار**، المفصل الجوهري للاختبار التحليلي لإيقاع التحول في المبنى اللغوي والخطابي، مع مقارنات وإحالات على السياق النصي الأعم الذي هو الرواية المغاربية، يفلح في إقناع المتلقي بتمثيلية التجارب المقروءة للمشهد الروائي المغاربي، ولتنويعات المغايرة في فضاءات تطوره اللغوي والتخييلي والجمالي. كما يتخلل متن القراءة مبحثان تركيبيان يعتمدان خطة الاستقراء المقارن، بين النصوص والتجارب، ولا تنصبان على نص مفرد ؛ الأول عن : " **اللغة الروائية وآفاق التجريب في الرواية المغاربية**"، والثاني عن : "**التأصيل والمغايرة في الرواية الجزائرية**". وتتصلان مع مباحث التحليل بصلات التأطير الاستخلاصي للتجارب والصيغ في التحامها وجدلها، وتشكلان حيزا للتحليل الأفقي لمدلولات " **للغة الروائية** "و"**الحداثة** "و "**البناء التهجيني** "و"**التأصيل** "و" **المغايرة**"، يتقاطع مع مباحث الاستقراء العمودي لمكونات "**التعدد**

اللغوي "و" "لسخرية "و"العجائبي "و "الذاتي "و "الصوغ الحواري" في الأعمال والنصوص المغاربية المفردة.

وهي الخطة التي وسمت عمل الناقد عبد الحميد عقار بغلبة التحليل النصي، وبهاجس استخلاص السمات النوعية والأسلوبية والجمالية الفارقة، في تمثل قيم الامتداد المتغاير، كما جعلت كشوفاته النقدية تتميز بسمة الكثافة في تناول الأسماء والتجارب والنصوص، مما يفسر جنوحه المستمر إلى التخفف من ضغوط المداخل النظرية، بحيث يكاد العمل يبدو بدون هاجس تنظيري، وإن استند في العمق على رؤية نقدية واعية بمقاصدها النقدية البعيدة ؛ بل إن مفاصله تكاد تتمثل _في هذا المستوى- بوصفها اختبارات تطبيقية منجمة للرواية المغاربية، تضمر من النصوص والأسماء أكثر مما تبدي، وتخفي من المراجع أكثر مما تجلي، ولعل ذلك ما يفسر التجاء الناقد إلى التصريح في خاتمة كتابه بأن :

"هذا البحث [يمثل] مجرد مدخل لقراءة الخطاب الروائي المغاربي. إنه فضلا عن ذلك مجمل بمعنى أن هاجسه كان هو التحليل والتركيب، في محاولة للإمساك بوضع الخطاب الروائي المغاربي من زاوية واحدة محددة تهم جوانب التطور والتحول فيه، في مستوى النص المفرد وفي مستوى المدار المشترك بين النصوص " (ص 173).

* * *

هذا وتبقى الإضافة الحقيقية لكتاب الناقد عبد الحميد عقار ،

في قدرته على المزاوجة بين غاية التأريخ لشكل تعبيري مميز هو الرواية، في سياق جغرافي خاص هو المغرب العربي، وتعميق الوعي -في آن- بجماليات الجنس الروائي وعبقريته في افراز تعدده، وكفاءته في التجاوب مع شروط التاريخ والفضاء والمجتمع والثقافة ؛ وكيف أن تلك الشروط جميعا تتساند في إفراز دينامية التحول في الخطابات التمثيلية لها، بحيث يضحى الجدل بين مكونات النسق الذهني : المعرفية والجمالية والإيديولوجية، علامة على سعي دائب للذاكرة والعقل والمتخيل الجماعي إلى إفراز تحولاته وتنويعها ومن ثم إلى إنجاز حداثته. ذاك هو الدرس المستقى من مجمل محاور الكتاب وقد ضمخته لغة الناقد الشفيفة بحساسيتها ودقتها في تلمس عمق الأشياء .

الناقد الخرائطي وحوارية الجمالي والإيديولوجي

قراءة في كتاب "الرواية المغاربية" لعبد الحميد عقار (1)

محمد أمنصور

يعتبر عبد الحميد عقار ناقدا خرائطيا، بالمعنى الذي ذهبنا إليه في كتاب «خرائط التجريب الروائي»، (2) فهو يراهن على لغة واصفة تجريبية تتفاعل في نسيجها روافد التنظير الروائي، والتاريخي الأدبي، والنقد الروائي، بهدف المساهمة في رسم بعض خطوط ومعالم التجربة الروائية المغربية. ولو أن عقار هنا خرائطي مغاربي يدعونا إلى إعادة النظر في مفهومنا للخريطة الروائية- النقدية القائمة على مفهوم القطر، ومقترحا في الآن ذاته خريطة أخرى جديدة ومغايرة هي خريطة المغرب العربي الكبير.

إن الناقد الخرائطي ـمن جهة أخرى- هو القارئ الذي تتجاذبه سلطتان معرفيتان : سلطة المعرفة الموضوعية وسلطة المعرفة التذوقية، وعقار بانخراطه في هذا المشروع النقدي

الطموح يكون قد دشن في المغرب تجربة نقدية جديدة كل الجدة، لها أفق التأسيس، نصطلح على تسميتها "بالنقد الروائي المغاربي".

إن فكرة المغرب العربي الكبير لا تستمد راهنيتها من الاستيهام أو إسقاط مفهوم مجرد على متن روائي يغطي خمس دول متجاورة، وإنما ترجع في عمقها إلى فكر وتراث الحركة الوطنية، التي أصلت لفكرة المغرب العربي الكبير ؛ وعقار إذ يحين هذا الحلم الإيديولوجي القديم الذي يجد له تمظهرا ما في "اتحاد المغرب العربي" ، فلأنه ينطلق في ذلك من قناعة إيديولوجية راسخة عبر عنها في الحوار الذي أجرته معه مجلة (مقدمات) عندما قال :

"إنني من الذين يؤمنون بأن تشييد فضاء مغاربي منفتح وديمقراطي سيبقى الرهان الأساسي لمغرب المستقبل ولكل بلدان هذا الفضاء. (3)".

وهذا الكلام كما هو واضح ليس من تداعيات الأحلام السلفية للحركة الوطنية، وإنما هو تأشير إلى مشروع تاريخي تمليه الحقائق الجيوسياسية، وما يزداد تأكدا يوما بعد يوم من الحاجة الاستراتيجية إلى التكتلات الكبرى.

في كل الأحوال، فإن استعمال اصطلاح "الرواية المغاربية" عنوانا لمشروع هذا الكتاب لا يمكن أن يمر علينا دون وقفة ولو مركزة. فمغاربية المتن الروائي موضوع البحث تدفعنا للعودة إلى سؤال الهوية المغاربية من منظورين اثنين : الأول تكشفه تعددية المتن الروائي المغاربي (18 رواية من خمس دول مغاربية)، وهي

تعددية تضمر الدعوة إلى الاختلاف والتعدد الثقافي ضمن مبدأ الوحدة المغاربية. والثاني، يكشفه تماثل الأوضاع اللغوية الثلاثية للدول [الفصيح/العامي/اللغة الأجنبية] وانعكاس هجانة هذا الوضع على المتن الروائي قيد التبلور في ضوء هاذين المعطيين يمكن القول إن مشروع عقار النقدي ينطلق من قناعة إيديولوجية تتلخص في أن الوحدة المغاربية لا تتنافى مع التعدد الثقافي ؛ وبصيغة أدق : الاختلاف والتنوع أو التعدد في المتن الروائي المغاربي لا يتنافى مع مفهوم وحدة الرواية المغاربية. أما السؤال المركزي الذي يفرض نفسه على عقار في هذا السياق، فهو :

- كيف يتفاعل الإنتاج الأدبي مع مكونات هذا الفضاء المحكوم بـ "التعدد في إطار الوحدة والتنافس في إطار التكامل بين أقطار المغرب العربي؟" (4)

وللإجابة على هذا السؤال، يشيد لمشروعه النقدي عائلة مرجعية تجد عناوينها الكبرى في«كريزنسكي» و«باختين» و«لوتمان»و«أوزبنسكي» و«بيبرزيما» و«كونديرا»، وهو بذلك يكون قد حدد إطاره النظري والمنهجي ضمن الأفق الشعري والجمالي الذي لا يخرجه من تحت مظلة التاريخ والواقع والمجتمع، أو -عموما- تفاعل الأدب مع الحقيقة الاجتماعية.

إن الفعل النقدي كما يفهمه ويمارسه عبد الحميد عقار في هذا الكتاب يأتي في أعقاب المد الثمانيني للبنيوية الشكلانية والسيميائيات، وهو مد بقدر ماوضع بعنف حدا لتجربة النقد

الواقعي، معلنا انسداد أفقه فقد أغرق الأدب المغربي (ولم لا المغاربي والعربي) في نزعة وصفية-وثوقية (أكاديمية)! نبذت الإيديولوجيا بوهم "النقاء العلمي" فسقطت في أسوأ أنواع الإيديولوجيا، حيث قللت من شأن الدور الثقافي للناقد وألغت وجهة النظر أو الموقف الإيديولوجي، كما اعتبرت جميع أشكال تفاعل النص الأدبي مع الشرط السوسيو-ثقافي نكوصا إلى الوراء فصارت الموضة هي "الأدبية"، ولا شيء سوى الأدبية!!

وإذا كان مأزق الخطاب النقدي السبعيني يتمثل في آفة الوثوقية وتوهم العلاقة الساذجة والمباشرة بين الأدب والمرجع الواقعي، فإن تسليط الضوء على الرواية من زاوية تحولات اللغة والخطاب، يحقق للغة الواصفة تلك النقلة النوعية في ضبط العلاقة بين الرواية والواقع ؛ حيث تصير اللغة والخطاب مسرحا للتجليات. فالتركيز عليها يتم -من جهة- من زاوية كونها علامة دالة على التحول الروائي بالمغرب العربي، و -من جهة ثانية- بالنظر لما للتجربة اللغوية من قدرة على أن تشكل عنصرا مهمّا من عناصر الحداثة الأدبية. إن عقار بهذا الاختيار المتوازن الذي يمد الجسور بين الإيديولوجي والجمالي يكون قد دفع بخطابه النقدي إلى امتلاك أدوات إجرائية، ذات فعالية علمية دون أن يتنازل عن همومه كمثقف مغاربي ملتزم، وهو توازن بين العلم والإيديولوجيا يبرر تخصيص اللغة بالقدر الوافر من العناية، وخاصة من زاوية تمظهرات الحقيقة الاجتماعية فيها ؛ مع الحرص على عدم التنازل، كذلك، عن

المعرفة الضرورية التي تتيحها .نظرية الأجناس الأدبية، والأبحاث الجديدة، الخاصة بالسيرة الذاتية.

لقد أفرز المشروع النقدي لعقار مجموعة من الرهانات، نذكر منها :

أ) التركيز على سؤال الشكل في علاقته بسؤال الدلالة ؛ أو محاولة استكشاف حوار الوظيفتين الشعرية والمرجعية في النص.

ب) البحث في اشتغال الإيديولوجي ضمن الشكل الجمالي ؛ أو عدم نسيان الواقع والتاريخ والمجتمع كخلفيات للنصوص، مع الإلحاح على التصور الذي يبلوره بييرزيما في قوله، إن " إقامة علاقة بين النص الأدبي وسياقه الاجتماعي لا يرتبط بالرؤية للعالم بقدر ما يرتبط بقدرة النص على تقديم العالم الاجتماعي باعتباره حوارا أو صراعا بين مجموع لغات جماعية تظهر في البنيات الدلالية والسردية للتخييل" (5).

ج) تأصيل مقولات إجرائية من قبيل [التحول، الحوارية، السخرية، التجريب، التشخيص الأدبي للغة...].

د) إيجاد عمق جغرافي وثقافي مغاربي للتجريب الروائي في المغرب، والانتصار للرواية التجريبية المغاربية، في نبذها للمعيارية، ومعانقتها للنسبي والمتغير، وهو ما يقود الناقد إلى الحديث عن التجريب باعتباره تأصيلا لجنس روائي حواري.

هـ) استلهام الأفق الكونديري في البحث عن سؤال الكينونة والوجود ؛ أو الاحتفاء بأسئلة الذات من منظور إيجابي. نقرأ

بصدد الرواية المغربية : "خلافا لما يعتقد، فالعودة إلى الاشتغال التخييلي على الذاتي وعلى ما له صله بسير الكتاب وتجاربهم الشخصية في ارتياد الوجود وتشييد الكينونة، يمثل أحد مظاهر الجدة والتحديث والإبداعية في الرواية المغربية خلال العقدين الأخيرين" (6)

أما الخصائص النقدية التي تميز جسم هذا القول النقدي المغاربي، فيمكن الوقوف منها على أربعة عناصر :

أ) **البحث عن الدلالة الكلية للنص الروائي** : فبالرغم من المراهنة على مكوني اللغة والخطاب بشكل مركزي، إلا أن الملاحظ في التحليل النقدي عند عقار هو إشرافه على الوضع العام للنص في بعده البانورامي، وهو تحليل يجعل مختلف مكونات النص الروائي تحظى بالإضاءة، إلا ما كان من تلك النصوص التجريبية التي تضحي ببعض المكونات، من قبيل القصة أو الشخصية أو البناء.

ب) **جدلية الوصف والتأويل** : وتتجلى من خلال حرص اللغة الواصفة عل المزج بين إواليتي الوصف والتأويل، لصالح عملية إعادة بناء العالم الروائي بناء نقديا، بعد أن يكون التحقق النصي قد بناه بناء تخيليا.

ج) **تنسيب المفاهيم والمصطلحات** : ويتمثل هذا العنصر في ربط علاقة تركيبية وتنسيبية بالمفاهيم والمصطلحات النقدية، بحيث تخضع في مجملها لسياقات التحليل ؛ بمعنى إعادة توظيفها بما يخدم السياق الملائم، وليس ليّ أعناق النصوص، ورهنها لوهم إثبات نجاعة المنهج!.

د) استخراج النظرية من النص :

وهذا المنحى محكوم بهاجس أن النصوص، هي ما يتضمن النظرية وليس العكس، ومن ثمة العمل بمبدأ الفرضيات التي تهتدي إلى المفاتيح الخاصة بولوج عوالم النصوص كل على حدة.

إن شمولية الفعل النقدي عند عقار، تتجسد في عدم قراءة أو تحليل النص الروائي كجزيرة معزولة. فهو يضعه في سياقة السوسيوثقافي، يموضعه في علاقته بالمؤلف والتجربة السابقة واللاحقة له، بمعنى أنه لا يقلل من أهمية المحيط الثقافي والسياسي العام للنص الروائي، وهو توجه نابع من كونه يشتغل داخل النظام الثقافي المغاربي في تنوع و (تنويعات) متونه الروائية وليس خارجه ؛ أي إن فعله النقدي فعل في التاريخ وليس مجرد "هوائيات" بنيوية شكلانية أو سيميائية مجردة، وهذا التوليف بين النصي والخارج - نصي، بين العلمي والإيديولوجي، بين الوطني والمغاربي هو ما يضفي على هذه التجربة طابع الالتزام بخطاب تنويري مجدد.

بهذا المعنى، يمكن القول إن أهم الأهداف المنجزة، التي استطاع كتاب (الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب) أن يحققها، تتمثل في :

أ) تثبيت الأفق المغاربي للرواية.

ب) عقد مصالحة بين الإيديولوجي والجمالي.

ج) تثبيت التجريب الروائي كقيمة جمالية.

د) تحرير الخطاب النقدي من وثوقية النقد الإيديولوجي، وتجريدية الخطاب الأكاديمي.

لقد سبق لعقار في دراسة له تحمل عنوان (النقد الأدبي بالمغرب، مسارات وتحولات) أن ميز بين ثلاث لحظات أساسية لتطور النقد الأدبي بالمغرب :

أ- اللحظة الإحيائية بأفق تربوي :

وتتميز بانغماس الناقد في هواجس المثقف الوطني المربي الطامح إلى تأسيس هوية أدبية لوطنه على غرار بلاد المشرق، يقول : "كان يتماشى مع الحاجة لإظهار أن للمغرب هوية تتجاوز البعد السياسي والبعد الجغرافي والثقافي العام إلى الأدبي. معنى ذلك، أن هاته المرحلة الإحيائية الأولى يمكن وصفها بأنها مرحلة تربوية فقط، تريد أن تخلق لدى الناس علاقة بالأدب وقبولا له، وبالأساس الأدب المغربي" (7).

ب) اللحظة التنويرية بأفق جدلي :

وفيها نجد الناقد المثقف العضوي، المتمرد والثائر. يقول بهذا الصدد : "أستطيع أن أعبر عن هذه المرحلة بشكل استعاري فأقول بأنها : مرحلة "ناقد الجمهور"، وأقصد بالتسمية المرحلة التي كان الناقد فيها هو نموذج للقارئ الحصيف المتلك لخبرة ثقافية يروجها ويحولها إلى مجال لقراءة

عامة للنصوص، وأقصد به أيضا ذلك القارئ الذي له هم سياسي مباشر حتى دون أن يكون منخرطا في العمل الحزبي بشكل مباشر" (8).

ج) اللحظة التجريبية بأفق تنظيري :

ومعها ننتقل إلى الناقد المسكون بطموح التنظير وبناء النسق، وفيها يقول : "أصبح النقد ينظر إليه باعتباره حقلا يتداخل فيه التحليل والتنظير في الآن ذاته. أصبح النقد ينشد أن يكون في أدواته وفي آلياته، كونيا، وهو ما يفيد أن الظاهرة الأدبية، وهي ذات خصوصية من حيث النشأة، ومن حيث التشكل، يمكن مقاربتها بالمقولات الكونية التي يشتغل انطلاقا منها الفكر البشري ككل" (9).

وإذا كانت اللحظة الأولى تطرح سؤال الهوية، واللحظة الثانية تطرح سؤال الواقع، واللحظة الثالثة تطرح سؤال الآخر (امتلاك المعرفة العلمية والحضور على المستوى الكوني)، فإن عبد الحميد عقار _في تقديرنا- يجمع في تجربته النقدية بين لحظتين : التنويرية بأفق جدلي، والتجريبية بأفق تنظيري. فهو لم يتنازل في يوم من الأيام عن مفهوم الناقد المثقف، الوطني الديمقراطي، الملتزم. وفي الآن ذاته، لم يتخلف عن مفهوم الباحث الأكاديمي، التجريبي، المتجدد المرجعيات النظرية والمنهاجية ؛ ومن هنا يمكن القول بأن هذا الكتاب

عبارة عن نواة لمشروع نقدي مركب وواعد، مشروع تتأسس قوته الاستراتيجية على اقتراح خريطتين على الأقل : خريطة للرواية التجريبية المغاربية، وخريطة للنقد الروائي المغاربي ؛ ثم خريطة أو تحقق تجريبي لمفهوم الناقد الخرائطي Le Cartographe ؛ المثقف المستنير. الملتزم، المسكون بسؤال التاريخ : الناقد الحريص دوما على وضع قضية الفن في قلب دائرة الإيديولوجيا، وحرارة الاجتماعي في دوامة التحول الجمالي.

إن (الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب) كتاب مؤسس في تجربة النقد المغربي/المغاربي المعاصر. وهو لذلك يدعو صاحبه إلى استكمال حلقاته عبر تجميع مالم يجمع بعد في بعض المجلات والدوريات، وكل ذلك حتى يأخذ الطموح المعرفي والجمالي لهذا الناقد الفذ كل أبعاده وامتداداته.

الهوامش :

1-عبد الحميد عقار، (الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2000.

2-محمد أمنصور، (خرائط التجريب الروائي)، ط : أولى، مطبعة أنفوبرانت فاس. 1999.

3-عبد الحميد عقار، (مجلة مقدمات)، عدد مزدوج 14/13 صيف _خريف 1998، ص :7 .

4-المرجع نفسه، ص : 19.

5-الرواية المغاربية، ص : 80.

6المرجع نفسه، ص : 23.

7-عبد الحميد عقار، (النقد الأدبي بالمغرب : مسارات وتحولات)، جماعة من الباحثين، منشورات رابطة أدباء المغرب، الطبعة الأولى : مارس 2002، ص : 105 .

8-المرجع نفسه، ص : 106

9-المرجع نفسه، ص : 107

من البحث في تحولات اللغة والخطاب
إلى إمكانية تصور أفق إبداعي للأدب

عبد الفتاح الحجمري

في خاتمة دراسته : "الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب"، أكد عبد الحميد عقار أن تحولات الخطاب الروائي المغاربي ليست بدون مآزق، ذلك النزوع التجريبي يصبح عائقا أمام التطور وأمام التلقي، عندما يساوي الاشتغال باللغة التضحية بالقصة أو الحكاية، وبالشخصية والبناء. ويؤكد في فقرة أخرى موالية أن تحولات هذا الخطاب، الناسجة لخصوصيته ومآزقه وحداثته، تستمد مشروعيتها، وتتغذى من سياق ثقافي وفكري عام ؛ يتصل هذا السياق بما يميز حركة التأليف في حقول الفلسفة والتاريخ واللسانيات والإيديولوجيا من خصوبة وتفتح وتوجه نقدي، وما يطبع مناهج التفكير فيها من تساؤل وبحث وعقلانية، وما تتسم به الخلاصات والأبنية التي تصوغها من تنسيب وتجذر في الزمان والمكان، بهما سيكون في إمكانها أن تلتقي بما هو كوني وإنساني.

تبدو هذه الخلاصة عند تعميق التأمل منفتحة على اختيار دافعت عنه _ضمنيا حينا وظاهرا حينا آخر- تحليلات عبد الحميد عقار، عند ربطها للتنويعات النصية والشكلية للرواية المغاربية بطبيعة تصور الأدب، وما يمكن أن يكشف عنه من آفاق إبداعية وجمالية. إن التحققات الفنية للرواية المغاربية، بالرغم من أنها تعاني من عدة مآزق تخص الإنتاج والتداول، إلا أنها تعودت أن يكون خطابها ثقافيا كاشفا عن هوية الكاتب والكتابة .

هكذا، يبدو عبد الحميد عقار منشغلا في دراسته بإنجاز تحليلات نصية وشعرية عامة لكيفية بناء اللغة والخطاب في الرواية المغاربية، وكذا بفهم موقع التخييل الروائي المغاربي ضمن ما ينتجه المجتمع من خطاب ثقافي واجتماعي وسياسي، يساهم في تعميق التصورات الأدبية ويغنيها.

بهذا المعنى، تتضمن دراسة عبد الحميد عقار جملة من القضايا التي تسمح بإعادة مساءلة خصوصية الكتابة الروائية المغاربية، في علاقتها بالآفاق الرمزية التي تصدر عنها، بوصفها كتابة حمالة لرؤى جمالية وأساليب فنية تبرر مكانة خطاب الرواية ضمن بقية الخطابات الأخرى التي ينتجها المجتمع ويتداولها الحقل الثقافي.

ثلاث قضايا مركزية ينفتح عليها الأفق النظري والتحليلي لدراسة عبد الحميد عقار أعرض لها من خلال ما يلي :

قضية أولى : ما هو دور الرواية في المجتمعات المغاربية ؟

وهل مازال هذا الدور يتأسس وعيه الثقافي على وعي سياسي، تتداخل ضمنه منابع التخييل بحمولات الإديولوجيا؟ أم أن الرواية المغاربية استطاعت أن "تستقل" عن توجيهات الإديولوجيا، لصالح متخيل حكائي مجدد ومغاير؟ يعي هذا السؤال المركب حدود الاعتقاد السائد بأن الأدب جزء من الإديولوجيا، بل إنه شكل من أشكال الإديولوجيا حين يسمح بإنتاج الدلالات وافتراض اعتقاد يصيرها قيمة من قيم الوجود والكينونة.

قضية ثانية : هل وظيفة الأدب الروائي واحدة ومتماثلة في المجتمعات المغاربية؟

أم هناك تفاوت في الإدراك وبيان الجدوى من الكتابة تختلف من قطر إلى آخر، ومن كاتب إلى آخر؟

على هذا الأساس، يبدو عبد الحميد عقار في دراسته "الرواية المغاربية : تحولات اللغة والخطاب" مهتما ببحث مفهوم للأدب الروائي، ضمن فضاء مغاربي يتوق نحو اعتبار التخييل مكتسبا ثقافيا فاعلا في المجتمع. ما دام كل حديث عن الرواية المغاربية يظل متصلا ومتعلقا بقيم الحداثة والتراث والتاريخ والسياسة والحرية والديمقراطية والدولة ... والتي تجعل -في المحصلة النهائية- من العلم الروائي معادلا للعلم الاجتماعي والتاريخي القائم هنا أو هناك ...

قضية ثالثة : هل من الممكن تحليل التركيبات الفنية للرواية المغاربية، وفي الآن ذاته، استخلاص احتمالاتها الفكرية والمعرفية ؟

وبالتالي ما هي حدود "الوعي النقدي" لهذا التحليل، الذي يصدر عن تصور معين للكتابة الروائية ويتوق إلى حصره انطلاقا من المنجز النصي، لا من المنحى النظري الجاهز ؟ .

أساس هذه القضية، إذن، تفكير عبد الحميد عقار في مستويات من الوضع الثقافي المفارق، الذي تحياه المجتمعات المغاربية، بين تطلعها لأن تكون لديها كتابة روائية حداثية، وبين واقع اجتماعي وسياسي وثقافي متخلف وغير حداثي، تحكمه عتاقة فكرية في الكثير من المناحي.

هذه ثلاث قضايا أخالها أساسية في دراسة عبد الحميد عقار، تغني أفقها النظري والتحليلي، وتمكن من فهم افتراضها المركزي الخاص بما يدعوه الباحث بـ"تحولات" اللغة والخطاب ؛ وإن استحضار تلك القضايا يعني أنه لا يمكن فهم التحولات ما لم نبحث لها عن مفهوم ما للأدب، أو على الأقل، تصور ما لجدوى الكتابة. من السهل القول بتحولات اللغة والخطاب في الرواية المغاربية، لكن من الصعب تحديد أين تكمن تلك التحولات، وهل هي عابرة أو متواصلة ومسترسلة، وهل ينبغي أخذها كبداية أو كامتداد ...

من هذا المنظور، يبدو اعتناء عبد الحميد عقار بوصف بعض قواعد اللغة والخطاب في الرواية المغاربية جديرا بالاعتبار، ولا يخلو من مغامرة، تقود إلى بحث خصوصية

الأدبي، والثقافي والإيديولوجي، الكامن وراء المعرفة النظرية التي تعتبر الرواية جنسا أدبيا متحولا ومتبدلا، كما هو وارد في أطروحات «جورج لوكاش» أو«ميخائيل باختين» أو «مارت روبير» .... لأن تحولات الرواية من تحولات المجتمع، ولأنه لا توجد هناك أساليب ثابتة ومحدودة فنيا وثقافيا. معنى هذا، أنه من غير الإمكان حصر الأبنية الحكائية أو نمذجتها، كما يبدو من الصعب ربط المتخيل بمرجع محدد أو حتى متعدد التجليات.

* - نص الكلمة التي ألقاها عبد الحميد العقار في نهاية أشغال الندوة التكريمية وهي مستخرجة من شريط التسجيل الصوتي للندوة.

ثقافة الاعتراف*

عبد الحميد عقار

لن يكون من السهل علي أن آخذ الكلمة بعد هذا الفيض من الأحاسيس والمشاعر، وبعد هذا الدفق من المحبة ومن التقدير، اللذين كنت دوما أستشعرهما، وأحس بهما، لدى كل الأصدقاء والصديقات ممن جمعتني بهم دروب الحياة ومسالكها، أو ممن جمعتني بهم دروب المهنة والاهتمامات والانشغالات والأسئلة التي تؤرق بلدنا. هذا الفيض من مشاعر المحبة والتقدير من ثلة من الصديقات والأصدقاء ومن آخرين، بسبب إحراج شخصي، لم أشأ أن أطلعهم على هذا التكريم، حتى لا أجد نفسي، ليس مغمورا، بل غارقا في هذا النوع من الإحساس الذي وإن كان يجددني ويطورني ويضاعف من إحساسي بالمسؤولية إلا أنه يخيفني؛ لأني ألفت، منذ طفولتي الأولى، أن أشتغل، لا أقول في الظل، ولكن في نوع من الهدوء، وبمسافة مع العالم الخارجي. ألفت دوما أن يكون القصد هو إتمام العمل، أيا كانت

طبيعته وموضوعه، ولذلك فمثل هذه المشاعر إذا كانت تضاعف من عمري، وتقصي عن ذهني التفكير في التقاعد، فهي في الآن ذاته تجعلني تحت مرآة أخشاها، لا لعيب، بل لأنني أيضا تعودت أن أواصل الشغل والعمل دونما انتظار لتقدير أو تكريم.

واسمحوا لي أيها الأصدقاء أن أشير إلى عنصر أساسي يميز الثقافة المغربية الآن، جاء ثمرة سنوات وأجيال، عاش فيها المغرب تجربة خاصة في النضال والصراع السياسي والفكري والإيديولوجي والأدبي، نابعة كلها من طبيعته المركبة وبنيته المعقدة ؛ هذا العنصر هو ما أحببت أن أسميه **ثقافة الاعتراف** ؛ وهي تعني بالنسبة إلى اتساع مدى تبادل الإصغاء، واتساع مدى القبول بالآخرين كما هم، وبالاقتناعات التي يؤمنون بها، وبأساليب التعبير التي اختاروها، وباللغات التي وجدوا أنفسهم يتقنونها أكثر من غيرها. إن ثقافة الاعتراف هاته، لحظة أخرى في تطور العلاقة بين المغاربة وبين منتوجهم الثقافي بالمعنى الواسع للكلمة. وعندما أتحدث عن الثقافة لا أحصرها في المكتوب والشفوي، فقط، وإنما أقصد بها كل الأشكال التي تصبح بمثابة ذاكرة، وبمثابة تأمين لصيرورة هذا المجتمع. بالثقافة ننظم وجودنا والمجال من حولنا، وبها نحفظ تجربتنا من الضياع والنسيان.

ولعل المغاربة في حاجة إلى تكريس أخلاقيات هذا الاعتراف، الآن، وأكثر من أي وقت مضى، بعيدا، طبعا، عن المجاملات، في محاولة لمزيد من التحفيز على العطاء، وعلى بذل الجهود، وعلى مزيد من التضحية، ولترسيخ ثقافة المحاسبة والمسؤولية، بحيث

نبقى منذورين لمجتمعنا ومواطنينا وبلدنا، وللقيم الإنسانية الكونية.

إن التفكير في ثقافة الاعتراف بهذا المعنى، هو الذي سهل علي مهمة قبول الدعوة لهذا التكريم. ولا أخفيكم أنه عندما عُرض علي الموضوع لأول وهلة أصابني هلع شديد، لم يخفّف من غلوائه إلا إيماني بالمسار الذي اتخذته ثقافة الاعتراف بالمغرب ؛ بحيث لم يعد هناك من يشعر بالنقص وهو يتحدث بدارجته المحلية المعنة في محليتها، ولم يعد هناك خوف من أن يتحدث الإنسان بأمازيغيته، سواء أكانت من الريف أو سوس أو الأطلس، ولا بفرنسيته إن كان لا يتقن سواها في أن يتحدث بها ؛ ولم يعد هناك من يعترض على الزجل وعلى مختلف التعبيرات الشعبية، بل لم يعد ثمة وجود اليوم لمن يمكنه أن يزعم لنفسه الطهرانية، التي حرضتنا، وزودتنا في سنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات بغير قليل من القوة ؛ قوة الإرادة، وبغير قليل من الحماس، والنضال لصالح القيم الكونية التي تجد أصلها في التحديث والعقلنة والديموقراطية ؛ لم تعد الطهرانية في ذاتها اليوم، سلاحا كافيا، الطهرانية غير المؤسّسة على الفعل والمشاركة والمسؤولية لا يمكن إلا أن تكون موضع سخرية ولا مبالاة من قبل الناس.

ثقافة الاعتراف هاته، خلاصة أساسية لسنوات طويلة من النضال ومن الإبداع، لأنه حتى الإبداع كان واجهة للنضال في المغرب، حيث لم يكن يناضل فقط أولئك الذين قاوموا السلطات وخروقاتها السافرة، واعتداءاتها ؛ بل ناضل أيضا

أولئك الذين حرصوا على أن يظلوا مخلصين للكلمة، والفن بشتى وسائله التعبيرية ؛ هؤلاء أيضا ناضلوا، لأنهم لو لم يقتنعوا بأدوارهم الثقافية، لكان المغرب الآن يواجه نوعا من الفراغ الروحي، ولو انصرف الجميع إلى النضال السياسي فقط، وأجّل الإبداع والعمل الثقافي لما كان للمغرب من شأن أو دور في عالم اليوم. تلك ميزة أستحضرها لما لها من دور في الممارسة الثقافية ببلدنا، على الأقل منذ ثورة عبد الكريم الخطابي، أكسبها القدرة على خلق نوع من التكافؤ بين ما هو سياسي وإيديولوجي، وما هو فكري وثقافي وقيمي.

من هنا، فإن التكريم يتم لمنظومة من القيم التي أنتسب إليها كما ينتسب إليها آخرون، ويجتهد كل من موقعه واجتهاده، وبحسب اهتمامه وتفكيره، وبالنظر إلى لغة تعبيره، في جعلها معيارا لوجودنا وانتسابنا إلى فضاء العصر، وانخراطنا في قيم الكون.

من تلك القيم، تأتي قيمة الاحترام للآخر، والقبول به والإصغاء إليه، ابتداء من الزوجة والأبناء، وإنتهاء بالمؤسسات المتعددة، مرورا بمن يخالفوننا الرأي أو الجغرافيا ونظام القيم. وهو الإصغاء الذي يجعلنا نطور تجربتنا باستمرار، عبر الاحتكاك بما هو أفضل وأقوى وأهم. ولا يمكن أن يتم الإصغاء للآخر واحترامه دون أن تكون الحدود : الجغرافية واللغوية والثقافية والدينية مفتوحة، ودون أن تكون هناك أرضية تسمح باللقاء والتواصل، محورها المشترك الإنساني.

وتستتبع قيمة القبول والإصغاء للآخر قيمة أخرى، هي السلوك الديموقراطي، المنبني على المشاركة وعدم الاحتكار،

وعلى اعتبار الفرد ذا قيمة بذاته وفي ذاته، لا حدود لها، ولا ينبغي أن تسيجها حدود. ومثال ذلك أن أوربا عندما تطورت وراكمت خصوصيتها، انطلقت من تقدير قيمة الفرد في ذاته وفي فرديته قبل كل شيء ؛ ومن ثم فإن هذا الفرد بالرغم من أنه يشكل القيمة الرئيسة، فإنه ليس بإمكانه أن يشكل العالم وحده، وإنما في علاقته بالآخرين ؛ ومن أجل أن تكون العلاقة مع الآخرين مثمرة وبناءة وتسمح بالاستمرار المتوازن، يجب أن تكون العلاقات الديمقراطية هي المتحكمة، وهي الأساس.

من تلك القيم أيضا، الإخلاص للمعرفة من أبسط صورها إلى أعقدها، فلا قيمة لمجتمع لا يعطي الاعتبار للمعرفة، ولا يسعى لامتلاك المعرفة وتطويرها والإسهام في تطويرها ؛ وليس المقصود بالمعرفة هنا التقنية والعلوم فقط، بل المقصود كذلك هم العلوم الإنسانية والاجتماعية واللسانية، والآداب والفنون، وكل ما يمكن أن يجعل من الوجدان والعقل متفتحين ومتماسكين، ولهما القدرة على الحضور والمشاركة والإبداع، وعلى تدبير الأزمات والمشاكل، من دون الوصول إلى أزمات أخرى مضاعفة ومركبة.

تنضاف إلى تلك القيم، في تقديري الشخصي، وعبر تجربتي المتواضعة، الأخلاق، ليس بالمعنى الديني أو الكهنوتي، وإنما باعتبارها معايير مشتركة موحدة للسلوك الإنساني، نابعة من الثقافة. حيث تكون هذه الأخلاق بالنسبة إلى الكل، هي المرجع الذي ينظم العلائق. لا وجود لمعرفة ولا لسلوك نضالي دون

أخلاقيات تدعمهما، ودون معايير بقدر انغراسها في ثقافة الوسط والبيئة، يكون تطلعها إلى ماهو كوني وإنساني.

من تلك القيم الوعي، عند القبول بالعمل مع الآخرين ومع الغير، بالحدود أو ب«السقف»، حدود الممكن المتاح، وحدود الإرادة الفردية، وحدود الإمكانات والشروط التي تتحكم في العلاقات وتؤطرها ؛ فحرية الفرد تنتهي عندما تبدأ حرية الآخر، وغنى التواصل والتفاعل والتشارك يزداد خصبا وعطاء بإدراك قيمة تبادل «التنازل»، بالإقناع والتفاهم والتفهم كذلك، بعيدا عن الضغينة والرّيب بالآخرين. والخوف والتعالي، وأشكال الاستهانة بالآخرين.

تحدث الأصدقاء عن تجربتي في النقد والترجمة، وعن العديد من الجوانب التي لي فيها إسهام، هذه الجوانب كلها بالنسبة إلي نابعة من عنصرين أعتبر نفسي مرتهنا بهما وسأظل كذلك ؛ الأمر الأول هو الاهتمام بالتحول والعمل على دفعه إلى أقصى حدوده، وهو ما قد يلاحظه القراء في الكتابات والحوارات التي أنشرها. الأمر الثاني، وهو ربما نتيجة التربية والثقافة، أقصد الانشغال المستمر بإعادة التفكير، والتشغيل المتواصل للذهن. في الحياة، كلما أظهرت التجربة عدم جدوى أسلوب ننهجه، ينبغي البحث عن أسلوب مغاير. ذاك منطق التطور والتجديد. ولذلك عندما اقتضت الظروف الثقافية، واقتناعاتي، أن تكون ثمة مجلة تحمل عنوان "الجسور"، فقد حاولت بإسهام ودعم أصدقاء أعزّهم، أن تكون منبرا في مستوى الأسئلة التي كانت تطرح، ما بين نهاية السبعينيات

ومفتتح الثمانينيات، أي ما بين الخروج من الأحلام الوردية التي لا حدود لها، إلى التفكير شبه المطلق في أن المعرفة هي الحل ؛ من هنا جاءت هذه المجلة في السياق الذي حاولت أن أشير إليه بإيجاز في السابق ؛ جاءت إسهاما خاصا في طرح الأسئلة والإجابة عنها ؛ كيف يمكن أن نمتلك معرفة بأنفسنا وذواتنا ومحيطنا ونظامنا، حتى عندما نقاوم ما هو فيه سلبي أو جاهز أو متجاوز أو مستبد ظالم، دون أن تستبد بنا الأحلام وأن تسبقنا الكلمات؟ لقد كانت المرحلة بهذا الالتباس محاولة للعبور والانتقال. ولا يمكن أن تستمر التجربة تكرر نفسها وقد أصبحت هناك هيئات وشخصيات أخرى رهنت نفسها بنفس المسار من مستوى آخر، لذلك كان لا بد من تجربة أخرى، وهي تجربة اتحاد كتاب المغرب ومجلة «آفاق»، وهي التجربة الغنية والعميقة التي طورت وجداني وثقافتي وإدراكي للقيم والتصورات. لقد جئت إليهما بذخيرة فكرية وثقافية مكنتني منها ظروفي وإمكاناتي التي أحسنت استثمارها في ذلك التاريخ.

الآن وانطلاقا من فكرة ثقافة الاعتراف ؛ ليس فقط في المجال الثقافي بل حتى في المجال السياسي، يمكن القول إن ما حدث سنة 1998 وما بعدها إلى حدود 2001 هو ثمرة نوع من الاعتراف المتبادل بين طرفين رئيسين، غير متكافئين، صحيح، وغير متساويين صحيح. ولكل منهما أهداف وحسابات مختلفة، إلا أن ذلك يمثل في النهاية نمطا من الاعتراف كان المغرب في حاجة إليه. رغم الإجهاز عليه فيما بعد ومحاولة العودة إلى

نقطة الصفر . هذا موضوع آخر، المغاربة يمكنهم أيضا أن يجدوا السبل لإعادة مسار القطار إلى السكة.

لقد تحملت المسؤولية في إدارة مجلة «الثقافة المغربية» التي تصدرها وزارة الثقافة باقتراح كريم من الصديق الشاعر محمد الأشعري بعدما سعدت بأن نعمل معا في اتحاد كتاب المغرب وظللت أعمل في هذا الاتحاد وإن من خارج المسؤولية، كلما كان ذلك ضروريا. وعندما ظهرت الحاجة إلى إعطاء الفرصة للجيل الجديد في تدبير الشأن الثقافي لاتحاد كتاب المغرب، تحمست للفكرة وساندتها بوعي. إذ لا يمكن أن نطالب بالتغيير في مستويات، ونسكت عنه في مستويات أخرى، لابد من إتاحة الفرصة للتجديد ليس فقط في الذهنيات، ولكن في الأشخاص أيضا، فما توافر لدينا من خبرة، وما اقترحناه من تصورات يستنفد إمكاناته عند لحظة ما، ومن الأفضل ترك المؤسسة تطور أسلوبها وتغير من مسؤوليها ولو قليلا، لعل الأمور تزداد عمقا وإشعاعا وحضورا. ولذلك اعتذرت عن الاستمرار في المسؤوليةآنذاك، بعد تحملها ثلاث دورات متتالية، وألححت على أن يتحمل المسؤولية حسن نجمي وأن يختار من بين الزملاء والأصدقاء من يمكن أن يواصل معهم هذا المسار ؛ وبالفعل هناك مكاسب، ربما سيلاحظ البعض قلة الندوات أو قلة الأنشطة، لكن الأمور لا تقدر فقط بكم الحضور وكم الندوات، ولكن تقدر بالمردودية والأثر. عند هذه المحطة اقترح علي الأخ الأشعري أن أستلم مسؤولية ما في إطار وزارة الثقافة فكان اختياري لمجلة : **"الثقافة المغربية"**، انسجاما مع اختياراتي الثقافية، وأنتم ترون أن

المجلة تأخذ طابعا وبعدا مغربيا بالمعنى العميق لصفة المغربي ؛ أي بمعنى التعدد المعقلن والاختلاف المنظم ؛ وضمن هذا السياق وفي إطار انتصاري للأفكار و المشاعر والمواقف التي أوضحتها في رسالة التحية إلى المناضل الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي بعد تكليفه ونجاحه في تشكيل حكومة التناوب التوافقي عام 1998، اضطلعت بتدبير شأن مجلة «الثقافة المغربية»، وهي الآن تعطي صورة حية نابضة إلى جانب زميلاتها التي تصدر عن اتحاد الكتاب أو عن أفراد بإمكانياتهم الخاصة، أو عن الجامعة، أو مؤسسات أخرى بدعم من وزارة الثقافة، تعطي صورة عن الثقافة في المغرب وهي تتجدد وتتطور بحثا عن تحديث ممكن وإبداعية مرغوب فيها.

هذه المحطة أيضا أغنت حياتي وتجربتي كثيرا، لأنها سمحت لي بالاستمرار في صلة مباشرة بالكتاب والفنانين والمبدعين من جهة، كما سمحت لي بأن أوفر لمثقفينا المغاربة منبرا يغنون به تجاربهم ويطورون به حصيلتهم وذاكرتهم. ولقد كان هناك حرص شديد على الاستقلالية الثقافية للمجلة، وعلى تجديد خطها الفكري، وتعميقه، بقدر ما كان حرصي شديدا على انفتاحها. وجعلها منبرا للإبداع والدراسة والمراجعة والترجمة على السواء.

أما الشاون، هذه المدينة الآسرة، فهي في أعماق الكيان ثاوية ؛ وإلى أن تسعفني اللحظة والعبارة الملائمة عرفانا لها، هي التي احتضنتني طفلا ثم يافعا، فغذّت وجداني ووعيي بقيم التحضر وأنا بعد في مقتبل تجربتي في ارتياد الوجود،

أكتفي اليوم بالقول، إن حيّزها في وجداني وتجربتي بلا حدود ؛ حيز أعمق وأبعد غورا من أن تحيط به الآن كلمات، حرصتَ على أن تكون عفو الخاطر، تردُّ التحية للأصدقاء والصديقات من الحاضرين والمشاركين بأنسب ما يكون من الوضوح والصدق المفعم بالمحبة المتبادلة بين منْ نتقاسم جميعا آلام الوطن وآماله، والمشترك الإنساني من القيم والمعرفة والتواصل، كلمات استوحيتها من إسهاماتكم وتساؤلاتكم، تلك التي تضيف لبنة أخرى في صرح ثقافة الاعتراف قيد التشييد، ثقافة الصدق والعمل والوعي النقدي المتبادل بالذات وبالآخر وبالعالم من حولنا.

المحتويات

... هذا هو عبد الحميد كما هو عندي في الصورة التي اختزنتها الذاكرة. ومع ذلك، من هو عبد الحميد في تصوري؟

عبد الحميد حضور دائم في بؤرة الفعل الثقافي.

عبد الحميد صلابة في الموقف وفي المبدأ. حينما مدت المائدة، لم يمد يده إلى الصحن.

عبد الحميد قدرة بارعة على الحوار الخلاق.

عبد الكريم الطبال


Bibliotheca Alexandrina
11473323

الثمن : 20 درهما